نجيب الكيلانى

عمالقة الشمال



كتاب المختار

روايات إسلامية

٣

عمالقة الشمال

الدكتور نجيب الكيلاني



كتاب المختار

بسم الله الرحمن الرحيم

(الطبعة العشرون)

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٤٠١٨

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

---

٣ حارة الجمل - المتفرعة من ميدان السيدة زينب - القاهرة

تليفون ،فاكس ٣٩٢٢١٥١

شخصيات الرواية

- ١- عثمان أمينو
- ٢- نور
- ٣- جاماكا - ممرضة
- ٤- الشيخ عبد الله - أحد مشايخ الطريقة القادرية
- ٥- عبد الرحيم - رفيق عثمان في رحلاته إلى لاجوس والإيبو ... وفي الحرب
- ٦- الأب توم - مبشر إنجليزي يعيش في إحدى قرى الإيبو ...
- ٧- مدام علية - صاحبة فندق في الحي العربي في لاجوس
- ٨- شخصيات ثانوية :

  أ- قائد السجن

  ب- زعماء بعض القرى

  جـ- ضباط

  د- عسكر

  هـ- مواطنون - تجار - خدم ...... إلخ

  و- هانيمان «طبيب مستشفى تبشيري»

۞ ٩- قادة :

أ- أحمدو بيللو

ب- إيرونسي

جـ- أوجركو

هـ- تشوكوما

۞ ١٠- مكان الرواية : دولة نيجيريا الاتحادية

۞ ١١- زمن الرواية : الفترة من عام ١٩٦٥م حتى ١٩٧٠م

۞۞۞

الفصل ١

اسمي «عثمان أمينو»، انحدرت من قبائل، «الفولاني» في شمال نيجيريا، يقال أن قبائلنا قد أتت مهاجرة من صعيد مصر في قديم الزمان، وقد كانت لنا حروب وغزوات وممالك في أجزاء كثيرة من أفريقيا. وفي نهاية القرن الثامن عشر ظهر لنا زعيم مشهور في التاريخ اسمه «عثمان دان فوديو»، استطاع أن يوحد قبائلنا، ويجعل لها جيشًا جبارًا تخفق فوقه ألوية الإسلام ... وهكذا حكمنا إمارات كثيرة منها سوكوتو وكانو وبرونو ... قبر «عثمان دان فوديو» ما زال حتى الآن في مدينة سوكوتو ... لعل أبي سماني باسم عثمان تيمنًا بهذا القائد العالم المسلم العظيم ...

والمدن عندنا فى شمال نيجيريا تنقسم إلى قسمين، القسم، القديم وفيه تسيطر التقاليد الإسلامية، والآداب المرعية، ويلتزم الناس رجالًا ونساء بأخلاقيات لا تسمح بالانحراف والتحلل، أما القسم الآخر للمدينة، فهو الأحياء الجديدة، ونطلق عليها بلغتنا «يابون غرى» أي المدينة الجديدة، وفيها يقيم الأجانب، وتنتشر الملاهي، وتتوارى في شوارعها – والعياذ بالله – بيوت الدعارة والعبث وحانات الشراب ... فالمدينة كما يقول أحد الفسقة قسمين بين الله والشيطان ...

والبيت الذي أسكن فيه في الحي القديم على الطراز العربي المعروف، وهو عبارة عن ساحة واسعة تتوسط البيت، تحيط بها الحجرات ... النساء محجبات ... أتقن اللغة العربية ... لغة الدين فنحن نؤمن بقداسة اللغة العربية، ونعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الإسلام، وأعرف أيضًا لغة «الهوسا» وهي لغة التجارة والتعامل، وأستطيع

أن أتحدث الإنجليزية بطلاقة، لأن هذا ضرورة لابد منها في ظل الاستعمار الإنجليزي ونظمه، كما أعرف التكلم بلغة «الإيبو» وهي لغة قبائل الشرق، وأعرف لغو «اليوروبا» قبائل الغرب ... كان لابد من ذلك إذ أني ابن تاجر كبير، كثير الأسفار، عشت في رحاب الصوفية وخاصة الطريقة «القادرية» ... وفي مدينة «كانو» «وسوكوتو» نشاط ثقافي ديني مشهور ... أنا - كما يقولون - أحد الدعاة إلى الله ... والطريق إلى الله محفوف بالأشواك والأخطار في أيامنا تلك ... كل ما يجري على أرضنا يجعل الأمر مهمة صعبة ... لم أتزوج بعد ... لماذا؟؟

قد يظن البعض أن عدم زواجي حتى الآن سببه إنني أريد أن أتفرغ للعبادة والدعوى ... لا ... دعني أعترف ... إن الدماء الحارة في عروقي تلهب جسدي. والزواج نصف الدين ...

الزواج نداء الفطرة في أعماقي ... عدم زواجي له قصة غريبة قد تتعارض مع كوني رجل دين ... لكني أكره الزيف والخداع ... سأقول الحقيقة ...

دهشت عند سماعي لكلماته وقلت: جاءني صديق ذات يوم وقال: «تعال لنمرح في الأحياء الجديدة في المدينة».

- «حاشا لله ... أأخوض في تلك المستنقعات الآسنة؟ ...»

قهقه ساخرًا: «عثمان أمينو ... من لا يعرف الشيطان لا يعرف الله ...»

- «كيف؟؟»

- «خبرني كيف تقاوم الأمراض دون أن تخالط المرضى وتعرف ما يشكون من آلام؟؟»

كنت أعرف أن التجول في «سابون غرى» مدعاة للشبهة وسوء السمعة ولقد علمني أبي أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وأن الاقتراب من بيت موبوء قد يلحق بي عدوى المرض، ويوقعني في متاهات الشرور والآثام، لكن دافعًا داخليًا يحرضني على الذهاب،

وصوت خافت في وجداني يصرخ بي :
«اذهب ... تعلم ... يجب أن تعرف الحياة بكل جوانبها » . ولاحظ صديقي «نور » ما أعانيه من حيرة وتمزق فهتف صديقي «نور »
– « لا قيمة لعفتك ما لم تكن صامدًا في وجه الإغراء ... إنك لم تر الإثم ، ومن ثم فأنت تفتقد لذة الصراع ...»
همست : « أنا أعرفك ...»
هز كتفيه في استهتار وقال : «أنا أشرب ... وأعاشر النساء ... وأقضي أوقاتًا ممتعة في السينما ... الجميع يعرفون ذلك ...»
قلت وأنا أفر : وأنا لا أتبع شيطانًا ...»
ضحك نور في وداعة ، وأمسك بذراعي عاتبًا والابتسامة تضئ وجهه الأسمر : «قد تتحقق هدايتي على يديك ...
نظرت إلى وجهه الأسمر الحزين ، وعينيه الشاردتين ، وسكت ، بينما استطرد هو قائلًا : « أتخاف؟؟ »
ووجدتني أقول في ثقة لا حد لها : «سآتي معك ...»
القلب الشجاع لا يرهب مواجهة الواقع ، والإيمان القوي لا يأنف من مخالطة المجذومين والمعذبين والمنحرفين ، الهروب رذيلة ، ولا جدوى من الإصلاح إن لم أواجه الواقع ، وكانت رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي تدق آلات الطرب ، وتجالس السكارى والسمار والندمان ، وتغني وترقص ، ومن قلب النار المجنونة الحارقة خرجت ... كأطهر ما تكون الأنثى ... وأحبت الله ... وعاشت لمجد الإيمان والحقيقة ... وكانت امرأة ... وانتصرت على كل وساوس النفس ، وبريق الذهب ، ودنيا المتعة والنعيم والمرح ... اختارت لقلبها أفراحا من نوع جديد ...
– «سآتي معك بكل تأكيد ...»
الطريق إلى الأحياء الجديد ملئ بالأكواخ والقاذورات ، وبعض الإبل قادمة من الجنوب في تراخ وكسل بعد أن طال بها الطريق ، وقطعان الأغنام يدفعها الرعاة الفقراء إلى الحظائر في أطراف الحي

القديم، ورائحة الجلد المدبوغ تزكم الأنوف، وخليط من أصوات الحيوانات يتردد في الأنحاء، وما أن عبرنا المنفذ إلى الأحياء الجديدة حتى تغير كل شيء... الشوارع نظيفة مرصوفة، العربات الأنيقة، والسيارات الجميلة تدلف في هدوء، والمصابيح الكهربائية تضئ الطريق، والمباني الفخمة ذات الرونق والبهاء تشمخ بهاماتها صوب السماء في كبرياء وعزة، والسائرون في الطريق العام أغلبهم يرتدي الزي الإفرنجي المميز، وقليل منهم يرتدي الدامر - ذلك الثوب المزركش الذي يشبه الجلباب - وعلى الرؤوس الطواقي، عيب كبير أن يسير المواطن النيجيري في الشمال دون طاقية... بعض النسوة الإفرنجيات يمضين في الطريق كاشفات عن نحورهن وأذرعهن... ويحملقن بنظراتهن دون حياء... وبعض الأفريقيات يقلدهن... «استغفر الله»... وأغمضت عيني خجلًا... لم أعد أرى إلا مواطئ قدمي، ولكزني صديقي «نور» قائلًا: «إذا لم ترفع نظرك فقد تصطدم بإحداهن وتمس يدك لحمها ...»

وضحك، بينما شعرت أنا بقشعريرة تسري في بدني، وتساءلت بيني وبين نفسي قائلًا:

«كيف تقاوم هذا الفساد كله؟؟» وفي المدينة القديمة لا يدخن الناس السجائر، ولا يشربون الخمر، وهنا أرى الناس ينفثون الدخان في تبجح... لا شك أن هؤلاء الناس لا يعرفون شيئًا عن الله... ولا يؤمنون بالآخرة... ولا يرهبون يوم الحساب...

وعلى الرغم من أننا في عز الصيف، والجو حار بعض الشيء، إلا أن السماء كانت تمطر مطرًا خفيفًا... وقال نور: «لشد ما أحب المطر ...»

قلت وأنا أحوقل وأبسمل: «السماء تبكي خطايا التعساء ...»

قهقه نور وقال: «السماء لا شأن لها بالبشر... ولا تفرح ولا تحزن... نحن الذين نتعرض لموجات الحزن، أو هزات الفرح ...»

- «كل واحد منا يرى ما لا يراه الآخر ...»

- «كلانا يرى المطر ...»
- «لكن تفسيرنا يختلف يا نور ...»
- «التفسير هو منطقة الخلاف دائمًا ...»

وفي المدينة الجديدة عشرات من الكنائس، وليس فيها مسجد واحد، الأجراس تدق، والقباب ذات الصلبان تضيء، برغم ضآلة عدد المسيحيين... والمستشفيات كلها أقامها المبشرون... إنه وضع غريب، المستشفيات عمل رائع... لكن للأسف... المسلمون يقفون في آخر الصف، ويعاملون أسوأ معاملة، أما الوثنيون والمسيحيون فيقابلون بكل احترام وترحيب ولماذا؟؟ أهذا ما أمر به الدين، أو تدعو إليه المبادئ الإنسانية؟؟ لهذا ولأسباب كثيرة أكره التبشير والمبشرين من رجال الكنيسة ...

همس نور: «فيم تفكر؟؟»
- «في الدنيا ...»
- «ألا تفكر في قضاء ساعتين في السينما ؟»

قلت مستنكرًا: «مستحيل ...»
- «لماذا؟؟»
- «دخلتها مرة ... وخرجت منها حيوانًا ...»

ضحك نور حتى كاد يستلقي على قفاه وقال: «إنها نبع لذيذ للمعرفة ...»
- «أتسمي هذه الإثارة والمفاسد معرفة؟؟»
- «فما هي المعرفة إذن يا معلم عثمان؟؟»
- «هي ما يصلح النفس ويقومها ...»
- «هذا جانب واحد ... ومن لا يعرف الشر يقع فيه ...»

كانت كلمات نور على جانب كبير من الصواب، لكن خوفًا غريزيًا يجرني دائمًا إلى وراء، يكبح انطلاقي صوب مغامرات المعرفة، هناك أنواع من المعرفة أخاف منها ... بل أكرهها ... وقال نور: «إن في السينما الليلة قصة تاريخية ممتعة ... دارت أحداثها في انجلترا منذ

مئات السنين ...»

ووجدتني أقول : «حسنًا فلندخل ...»

كانت القاعة مظلمة تمامًا ، ولا يضيء في جنباتها إلا الشاشة ، موسيقى ... وأشباح تتحرك ... نساء جميلات يبتسمن ورجال ذوو أناقة وشعور مستعارة، وسيوف معلقة في الخصور ، ومائدة مستديرة ، وزجاجات خمر ... وأرشدنا أحد العاملين في السينما إلى أماكننا ، لم أستطع أن أرى أحدًا من الرواد إلا بعد فترة ... لا شك أن الصدفة وحدها هي التي جعلتها تجلس إلى جواري ... لم أرها إلا في الاستراحة بين الفيلمين ... كانت سمراء فاتنة ، ذات عيون مكحولة ... الحقيقة أنني ارتجفت عندما رأيتها ... وكم كانت دهشتي عندما رأيت صديقي نور يجاذبها أطراف الحديث

– « هل تعرفها؟؟ »

همست لنور الذي قال : « إنها ممرضة بمستشفى قريب ... كثيرًا ما استقبلتني وأنا سكران ... أنا زبون مستديم ... لكن أقسم لك أنني كرهت الخمر منذ شهور ...»

أصابني ارتباك شديد ، وعزمت أن أترك مكاني ، وطلبت من نور أن نتبادل المقاعد

– «لماذا؟؟ إن تصرفك غريب يا عثمان ...»

– « هذه رغبتي ...»

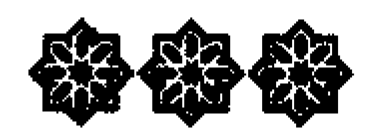
وابتسمت ، وعاد الظلام وبدأت السينما عرضها ، لكن ابتسامتها ظلت عالقة بخيالي ، حاولت أن أستغفر الله ، وأستعيذ من الشيطان الرجيم ، وألعن الصدفة التي قذفت بي إلى هذا المكان ، وألعن نور ، لكن هذا كله لم يمح صورتها من خيالي ولم أعد أرى على الشاشة سواها ...

وتسللت في هدوء ... تركت القاعة دون أن يشعر بي نور ، وانطلقت إلى الشارع الواسع الذي بللته قطرات المطر ، وجعلته لامعًا جذابًا ، كنت أجرى وألهث ، وقصدت أقرب مسجد في المدينة القديمة

وأخذت أصلي ... وأصلي ... وأقرأ القرآن ، وأذرف الدموع ...

قد تسألني لماذا لم أتزوج؟؟

لا شك أن «جاماكا» - وهذا اسم الممرضة - هي السبب ... لأني لو التقيت بفتاة مثلها منذ سنين لتزوجتها على الفور ... لكي لم أكن قد وجدت الفتاة التي تجعلني أفكر في الزواج قبلها ...



الفصل ٢

كان فراري – كما علمت – مادة مسلية «لجاماكا» ونور ، وأخذا يتبادلان التعليقات عني ، ومن خلال الحديث والتعليقات عرفت عني كل شيء ، وقال نور أنه برغم هروبي إلا أنها أبدت كثيرًا من الاهتمام بي ، وأكثرت من الأسئلة عني ، وبدا لي أن الأمر تافهًا لا قيمة له ، إذ أن اهتمامها لن يعدو جانب الطرافة والغرابة ... كنت أعيش في بيتي وحيدًا بعد أن رحل أبي إلى الدار الآخرة ، وبعد أن تبعته أمي بعد شهور ... مات أبي سعيدًا كأقصى ما تكون السعادة ، نظر إلي عند الموت بعينين دامعتين تشعان إيمانًا نبيلًا وغمغم :

« ها أنت ترى يا ولدى كل شيء إلى زوال ، وفي يوم من الأيام لابد أن نودع الدنيا ... والمال ... والأحباب ... ,نذهب إلى الحبيب الأعظم لنعيش في رحابه ... أيمكن أن يضحي عاقل بأخراه من أجل دنياه الفانية ... فلتملأ قلبك باليقين ... وعش دائمًا لله ...»

ونام أبي هادئًا ... شاحب الوجه ... ولحيته البيضاء كانت تقطر صفاء ...

احتبست أنفاسه اللاهثة فجأة ... ثم مات ...

وكانت كلمات أبي الصادقة تتغلغل آنذاك إلى أعماق نفسي ، وترعش قلبي ، كانت بسيطة قوية مؤثرة ... ويومها صغرت الدنيا بكل ضخامتها في عيني ... إن كل شيء إلى زوال ... فلا معنى لأن يسقط الإنسان المؤمن صريع البريق والإغراء ... والغني من هانت في عينيه الدنيا ، ولم تستعبده أموالها وجاهها ... وبعدها تكررت رحلاتي إلى الله ... كنت أخرج في خضم القبائل الوثنية داعيًا إلى الإيمان ... أسلم على يدي خلق كثير ... كانت سعادتي برجل يؤمن أعظم من كسب آلاف الجنيهات ، والحصول على كومة من الذهب ...

لكن رؤيتي «لجاماكا» أثار في نفسي خواطر غريبة ... العيون المكحولة لم تفارقنى حتى في منامي، رأيتها تخطر في رداء أبيض ... ووجهها الأسمر الفاتن يذكرني بأسراب الحمام الهائمة في سماء الحرم ... يذكرني بالنسوة المؤمنات وهن يطفن حول الكعبة ... وأنا زرت بيت الله الحرام في حياتى مرتين ... كان طيف «جاماكا» يطاردنى في إلحاح ... وكنت أستريح لخيالها برغم خوفي الشديد، وزاد ارتباكي وخوفي، فأسرعت إلى شيخي الكبير «عبد الله» قلت له: «سيدي وإمامي ... في القلب حاجات وفيك فطانة ...»

ابتسم مسبل الجفنين وهمس: «أي عثمان ... أشواق الإنسان لا نهاية لها ...»

- «أشواق منحرفة يا مولاي ...»

- «ما دمت قد عرفتها فلا تخشها ... أعطيت لها الصادق من الصفات، ففيم الخوف والشتات؟؟»

قلت في قوة: «أجل ... أشواق ... لكن لها صفة الانحراف ...»

هز الشيخ عبد الله رأسه وقال: «اخلع نعليك ... وانزع طاقيتك ... وانظر إلى السماء واهتف سبحان الله ... والحمد لله، ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ...»

وكانت كلمات شيخي أمرًا لا يرد ... خرجت قبيل الفجر حافيًا عاري الرأس، وأضرع إلى الله ... شعرت ببرد الراحة ينسكب بين ضلوعي ... الانتصار على نوازع النفس معركة مقدسة ...

وعدت إلى بيتي بعد الصلاة ... ثم نمت نومًا هادئًا، ولم استيقظ إلا على دقات الباب ... لقد جاء نور، كان يعاني من مشكلة البطالة فقد طرده صاحب المحل الكبير في المدينة الجديدة ... لكنه لم يكن تعسًا، ومع ذلك فإن القلق كان باديًا على وجهه، لم يعطني الفرصة لأعلق على وضعه، بل سبقني بالقول: «ليست هذه المرة الأولى ... لقد فصلت من عملي الحكومي مرتين وطردت من مصانع الزيوت في الشرق ... ولم أستطع أن أقضي أكثر من عام في المناجم ... إنني لا

أطيق البقاء في مكان واحد فترة طويلة ... ومع ذلك فلن أموت جوعًا ...»

وفكرت في أمر نور ، أنا أعرف جيدًا نواحي النقص فيه ، لكني آمل أن تنصلح حاله ، من يدري؟؟ ألم يمتنع عن شرب الخمر ، ووجدتني أقول له : «أنا راحل إلى الجنوب ... ولدى قطيع من الأغنام تعاقدت على بيعه ... في الإمكان أن تصحبني في هذه الرحلة ، وسوف أدفع لك أجرك ...»

ضحك نور ، وبدا سعيدًا منشرحًا ، وتمتم : «أريد جوادًا ... ومسدسًا ... وملابس رعاة البقر التي أراها في الأفلام الأمريكية ...»

وجزعت عند سماعي لكلمة «الأفلام» ، لقد أعادت إلى صورة العينين المكحولتين ، والوجه الأسمر الفاتن ... «جاماكا» ... وارتعدت فرائصي ...

– «بالله يا نور ... لا تعد تذكر هذا الأمر ...»

قال في استهتار : «الملعونة لم تكف عن السؤال عنك ...»

قلت في انبهار : «لماذا؟؟»

– «تقول إنها ملت الذين يترامون تحت أقدامها ...»

– «وأنا؟؟»

– «أنت الوحيد الذي تركها خلف ظهره وانصرف ...»

– «ما معنى ذلك؟؟»

قهقه نور ، ورماني بنظرات مرحة وقال : «معناه الحب ...»

دارت رأسي ، كانت الحجرة خافتة الضوء ، تراقصت الظلال على الجدران ، الشياطين ترقص ، وتخرج ألسنة من لهب أحمر ، وموسيقى أفريقية صاخبة تدق ، وما زال رأسي يدور ، وهي – خيل إلى أنها ترقص حول نار مجوسية والجواهر المعلقة في جيدها وخصرها بعث نغمًا مجنونًا وهي ترتطم ، وصرخت : «مستحيل ...»

قال نور : «لماذا؟؟ هل الحب حرام ...»

– «أنا أرفض هذا السقوط ...»

– « أنت لا تملك مشاعرها ...»

– «بل أملك أن أدوس طيشها بحذائي ...»

رماني بطرف عينيه وقال: « ربما أمسكت بحذائك وقبلته ...»

كدت أجن، بدت لي فلسفته العابثة كقوة رهيبة تحاصر فكري، وتسخر من أفكاري، هتفت: « أنا لا أتزوج من وثنية ... هذا محرم شرعًا ...»

عاد نور إلى ابتسامته الماكرة وقال: «نحن لا نتحدث عن الزواج ... ثم إنها قد اعتنقت المسيحية على أيدي المبشرين في قبائل الإيبو ... وتلقت على أيديهم دروس التمريض ...»

طأطأت رأسي وقلت: «بعد يومين سنرحل إلى الجنوب... ستستغرق الرحلة حوالي شهرين ... سنبيع الأغنام، ونشتري بضائع أخرى ... وفي الطريق سندعو الوثنيين إلى الله ...»

« أنا داعية للإسلام قبل أن أكون تاجرًا ...»

وقال نور: «رحلة ممتعة لا شك ... أنا في هذه الدنيا عابر سبيل، أقطع الطريق قهرًا ... أمضي حينما أجد لقمة العيش، لا أسد أذني عن سماع شيء ... وأهتبل الفرصة، ولا أحرم نفسي من لذة ... فقد لا تتوفر لي إلا مرة ... أمضي على الهامش دون ضجيج ... أرقص الإيبو ... وأغنى مع اليوروبا ...»

وأراقص المسيحيات ... وأغوص في مستنقعات المنطقة الشرقية ... وأتوه في ظلام الغابات ... لا أخاف الموت.

❁❁❁

الفصل ٣

أنا أؤمن بالمعجزات، ولا أدهش لرؤية العجائب والمفارقات، فالله قادر على كل شيء، ونحن لا نعرف عن الكون إلا القشور، جوهر الأشياء غائص في أغلفة كثيرة من الظلام ولا يراها إلا أصحاب البصائر الأطهار ...

حينما رأيت «جاماكا» تقف ببابي، دق قلبي من الرعب، ولم أستطع أن أنطلق بكلمة ترحيب واحدة ... إلا بعد وقت ليس بالقصير ...

وأنا ينقصني الحزم في بعض الأحيان، هذه نقطة بارزة وأنا واثق أن الذين يعوزهم الحزم يضيعون كثيرًا من الفرص، ويجلبون على أنفسهم خسائر كان في الإمكان تجنبها، هل ذلك يعني أنني ضعيف الإرادة أم أنه ضرب من الخجل؟؟

قالت «جاماكا» في براءة: «ليس من المعقول أن أظل واقفة ببابك»

– «لكن ليس في الدار أحد ...»

نظرت إلي طويلًا نظرة عتاب: «لكنك فيها ...»

– «أعني أنه من غير اللائق أن استقبل امرأة في بيتي ...»

همست في إصرار: «سوف أدخل»

صرخت في جنون: «في الداخل شيطان»

ابتسمت قائلة: «أترهب الشياطين؟؟»

– «لا تضيعي الوقت ...»

قالت وهي تدلف في إصرار: «لست بائعة هوى»

باحة البيت يغمرها الضوء الساطع، وأشعة الشمس تعري كل شيء، وعندما رأيتها تنظر صوب الغرفة القريبة، أسرعت

باستحضار مقعدين .

الضوء الباهر يصرع نوازع الشر ، هذا ما أفهمه ، الأمر بدا لي لا يصدق ، ماذا جرى ، بالأمس ليس هناك سوى لقاء صنعته الصدفة البحتة في إحدى دور السينما ، كلمات تافهة من صديقي نور ليس وراءها سوى العبث ، مجرد كلمات إعجاب من «جاماكا» ، آلاف الوجوه يلتقي بها الإنسان ، ولا تخلف وراءها شيئًا نحن نسير في الدنيا كالمخدرين ، لكن مشهدًا معينًا قد يرسخ في النفس لا يغادرها ...

همست جاماكا : «شيء ما يشدني إليك»

قلت في شيء من الجفاء : «ألهذا جئت؟؟»

انحنت قليلًا وأردفت : «ألا تعرف ما الذي يحرك الإنسان؟؟»

– «ماذا؟؟»

– «رغبات مبهمة ... قد نسميها مشاعر ... قد لا نجد لها اسمًا مناسبًا ... المهم أنني أردت أن أراك ...»

– «لا يمكن أن يكون ذلك غير ذي أهمية»

هزت كتفيها قائلة : «ربما ...»

ثم استطردت : «ومع ذلك ، فأنا قد تعودت أن أستجيب لما يعتمل في داخلي ، في غابات الجنوب كنت وأنا صبية أجري عارية ... لم أكن أجد غريبًا يفد إلينا إلا وأهرول إليه ... ويوم أن عملت كخادمة لدى بعض الراهبات شعرت بسعادة قصوى ... كانت حياتهم غريبة وأفكارهم أغرب ... وعاداتهم تدعو إلى الدهشة ... وكنت مزهوة وأنا أنطق ببعض كلمات الإنجليزية ... وتعلمت الكثير من عاداتهم ولغتهم واستطعت ببراعة أن أتعلم مهنة التمريض ... كنت أرحب بأي مكان

يبعثون بي إليه ... تمنيت أن أقطع البلاد شرقًا وغربًا ... ووجدت راحة كبرى هنا في الشمال ... الجو جميل ... والناس نظفاء ... وليس عندكم ذباب « التسي تسي » ولا الثعابين أو الحيوانات المتوحشة ... ولا يأكل الإنسان لحم أخيه الإنسان ...»

وسادت فترة صمت لم أعرف خلالها كيف أحادثها ، وأدركت هي ما يسودني من ارتباك وخوف ، وقالت : « علمت أنك من رجال الله ...»

- « لا أملك سوى النصيحة والكلمة الطيبة ...»
- « ورجال الله – كما أعلم – لا يغلقون أبوابهم في وجه أحد ...»
- « أجل ... غير أن الأمر يختلف الآن ...»
- « لماذا؟؟ »
- « يوجد الآن رجل واحد وامرأة واحدة ...»
- « فليكن ...»
- « وإذا اجتمعا كان ثالثهما الشيطان »

ضحكت جاماكا ، لشد ما أخاف النظر إلى عينيها المكحولتين ، تصورتها عارية تجري في الغابات ، وتقلد أصوات الوحوش ، وتنهش اللحوم الآدمية ، وتخوض في المستنقعات ... وتخيلتها تخدم في مقر الراهبات وتلتقط فتات موائد السادة الإنجليز ، وتتعلم الكلمات الإنجليزية .

ثم تسقط بين ذراعي نذل ... فوقفت وقلت : « أرى أن نفترق »

نظرت إلي بتحد وقالت ببساطة مذهلة : « أنت في حاجة إلى امرأة ...»

- « ماذا تعنين؟؟ »
- « أريد أن أكون لك ...»
- «ليس هذا وقت العبث والمزاح ...»
- « أنا أعبر حقيقة عما يجيش في نفسي ...»

- «لكن الأمر بالنسبة لي يختلف ...»
هزت رأسها، وقد شاب وجهها الأسمر حزن مباغت وقالت: «فهمت ...»

وفي لحظات كانت تتجه صوب الباب، وتغيب وسط السائرين، وأنا باق في مكاني لا أتحرك، تنفست الصعداء بعد قليل، لم أجرؤ على ملاحقتها بنظراتي، وران على قلبي حزن ثقيل، لا أدري كنهه، أعترف أنني لم أكن صادقًا مع نفسي، كنت أطردها وقلبي يحتضن نظراتها، وأدفعها وأتمنى أن تبقى، أنا مسلم وهي مسيحية، ومع ذلك فلا أرى مانعًا من الزواج، هناك رواسب ومخاوف مبهمة تتعلق بماضيها الغامض، ونتف من كلمات نور تلقى ظلالًا من الشك، جرأتها أخافتني، شجاعتها جعلتني أتراجع، وفي نيجيريا الشمال ملايين الفتيات يعشن محجبات في الحفظ والصون، ويعبدون الله، ويلتزمون بالفضيلة، فلماذا لم أفكر في واحدة منهن ... أليس من العجب أن يميل قلبي «لجاماكا» بالذات ... هذا امتحان وبلاء من الله ...

هرولت إلى شيخي «عبد الله» ... كان يتوضأ لصلاة الظهر وحوله الأتباع والأشياع، هؤلاء الدراويش يتسابقون لخدمته، ويتبركون بماء وضوئه، وهو في شبه غيبوبة يغمغم بذكر الله ... قلت بنبرات مرتعشة: «مولاي ...»

صاح بأعلى صوته دون أن يفتح عينيه: «استغفر الله يا عثمان ...»

- «مولاي ...»
- «انتظر حتى نتم الصلاة ...»

كانت دموعي تهطل بين الركعات والسجدات، تبلل وجهي ولحيتي السوداء الصغيرة، وبللت القطرات موضع السجود، انتهت الصلاة، وقرأنا الأوراد، وأخذ الدراويش ينصرفون واحدًا بعد الآخر وهم يصافحون الشيخ ويقبلون يده.

كم كانت دهشتي عندما سمعت الشيخ يقول وهو مغمض العينين:

«اذهب بتجارتك على الفور صوب الجنوب ... ولا تصطحب «نور» معك ...»

- «مولاي ... إنه فقير مسكين ...»
- «ولتعطه أجره لوجه الله ...»
- «ما جئت لأمر كهذا ...»
- «هذا هو الجواب ... افعل ما تؤمر ...»

وأخذ يردد «يا مغيث أغثنا واكشف عنا السوء»، ثم سمعته يزجرني: «قل معي يا عثمان ... قلها ألف مرة ...»

وأخذت أردد الضراعة بقلب متعلق بالله، كنت أشعر أن سحب الخوف والعناء تنقشع رويدًا رويدًا، وأن مشاعري ترق وتصفو، وما أن انتهينا من الورد المذكور، حتى سمعت شيخي عبد الله يقول: «الشيطان لا يكف عن قرع أبواب المؤمنين ...»

صحت وأنا أشهق باكيًا: «إنها امرأة يا مولاي ...»

ابتسم الشيخ في هدوء، ومسح على رأسي وظهري وقال: «يأتي الشيطان في شكل امرأة ... وقد يظهر في ثوب سلطان على رأسه تاج ... وقد يخطف بصرك على صورة قطع من الذهب والمجوهرات ... المال شهوة ... والسلطة شهوة، والنساء شهوة ... هل فهمت؟؟»

طأطأت رأسي في استحياء وتمتمت: «المصيبة أن قلبي خفق لها ...»

- «لن يحاسبك الله إلا على ما جنت يداك ...»
- «فتاة متنصرة من الإيبو ...»

عندئذ فتح الشيخ عينيه، وتنهد ثم قال: «لم يعلموها من الدين إلا أن المسلمين في النار ... وأن الرقص والشراب والإباحية هي المدنية

فهي مدنية خراب ... صنعها فكر سقيم يبغي التدمير ... الشرع يبيح زواجك منها ... لكن لا تنس أن مسلمة خير منها ولو أعجبتك ...»

تلعثمت كثيرًا وأنا أقول : « ألا يجوز أن يهديها الله عل يدي ؟ »

– «كل شيء جائز ... الأفضل أن تطمئن لهدايتها أولًا ...»

وشرب الشيخ جرعة ماء وقال : «كفرة أوربا قد زرعوا في أرضنا الفتن ... المبشرون لا يدعون إلى الله من أجل الله ... أنت تدرك معنى كلامي ... كان الأوربيون وراء كل الفتن والدماء التي أريقت ...»

وشرد الشيخ ، ثم أغمض عينيه وهتف : «حي ... قيوم ... علام الغيوب ... إذا نزلت يا عثمان في أحراش اليوروبا ... وظلمات الإيبو ... فابعث بكلمات الله في كل مكان ... وادع البشر هناك إلى عبادة الواحد ... وقل لهم كونوا إخوة ... وحطموا الأصنام الجديدة ... أطلق كلماتك في الصحراء ... في الغابات ... في المناجم ... في المصانع ... ولا تخش إلا الله ... وليس من المكتوب هروب ...»

«ولو اجتمع أهل السماء والأرض على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك ...»

* *

البيت صامت ، وأمامي مصباح صغير ، وكتاب عن معالم الطريق أقرأ فيه ... ويدق الباب ويدخل نور ...

– « علمت أنها جاءت إليك ...»

نظرت إليه ، ثم قلت : «لن تسافر معي ...»

أصابته دهشة مباغتة لكلماتي ، بدت على ملامح وجهه ، أدركت

منها مدى اليأس الذي ملكه، لكني أخرجت رزمة من الأوراق المالية وقلت: «هذا أجرك ...»

دفعها بيده في شيء من الغضب وقال: «يهمني أن أعرف لماذا غيرت رأيك ...»

– «دع هذا الأمر ...»

– «أنا غني عن مالك ...»

– «لكنه حقك ...»

وعاد يرمقني في حيرة: «هل أسأت إليك؟؟ إن جاماكا مجنونة ... لقد حذرتها أكثر من مرة حتى لا تتعرض لك ... لا ذنب لي ...»

وانصرف نور حزينًا دون أن يأخذ شيئًا ... وأنا الآخر شعرت بمرارة قاتلة ...

❁❁❁

الفصل ٤

الحديث عن السياسة قد يكون مملًا ، وكثير من الناس لا يعبأ بها ، غير أن لى وجهة نظر أخرى ، إن الإنسان مجموعة من العواطف والأفكار ، وفي قلب الإنسان تختلط مشاعر الحب والكره ، والعنف واللين والفن والسياسة ، والدين والحياة ، بل إن تصوري الذي أؤمن به أن الدين الإسلامي تفسير رائع للكون والحياة والإنسان ، وحل شامل لكل المعضلات التي يعج به الوجود ... أنا من أنصار حزب « السلاما » أو هيئة مؤتمر الشمال ... رئيس الحزب هو « أحمدو بيللو » ... من منا لا يعرف أحمدو بيللو ... إنه أبو نيجيريا الحديثة ... الأب الروحي لجميع المسلمين ... زعيم أكبر حزب ... متواضع ... مؤمن ... وهو من سلالة ملوك « الفولاني » لم يحن رأسه للإنجليز قط ... كلنا يعرف قصته مع الأميرة « ألسكندرا » مندوبة الملكة إليزابيت في عيد الاستقلال النيجيري ، لقد رفض الانحناء لها ... ورفض أن يمد يده لليهود أو يقبل معوناتهم ... حزبنا أكبر حزب في نيجيريا ... ينال الأغلبية الساحقة في الانتخابات ... على أكتاف هذا الحزب قامت وحدة نيجيريا ... رفض أحمدو بيللو أن يكون رئيسًا للجمهورية ... اكتفى بأن يكون رئيس وزراء الشمال ... أما نائبه في الحزب فقد أصبح رئيسًا للوزارة الاتحادية التي تضم حكومات الشرق والغرب والشمال ...

في السماء صفاء غريب ... والجو رائع ... ومع ذلك فأنا أشعر بمرارة ... أريد أن أفعل شيئًا ... عدت إلى شيخي عبد الله ... إنني بجوار هذا الرجل أشعر براحة عجيبة ... لكأنما يتدفق نبع اطمئنان مقدس من قلبه فيملأ فؤادي باليقين ... وما أن وصلت إليه حتى

وجدته يستعد لزيارة أحمدو بيللو ... ولم يزد على أن قال : «تعال معنا ... جئت في وقتك ... كنت سأبعث في طلبك ...»

لم تكن الأمور في عاصمة الشمال على ما يرام برغم الاستقلال والوحدة الوطنية، إن الصراع دائمًا محتدم ... صراع أفكار ... لا خوف من صراع الأفكار ... أخطر العوامل المؤثرة في هذا الصراع هي الحركة التبشيرية ... إنهم لا يدعون إلى الله حسب طريقتهم فحسب ... ولكن القساوسة، ليسوا رجال دين هنا بالمعنى الدقيق، إنهم يتزينون بمسوح الرهبان، ويظهرون صفات التدين، لكنهم في الحقيقة يؤرثون الأحقاد، ويبثون الفرقة، ويمزقون وحدة الأمة ... إنهم لا يريدون أن يسود الحب والصفاء ... معنى الوحدة الوطنية أن يفقد المستعمرون القدامى والجدد مصالحهم ... ولا أنسى أن معظم الموظفين في الشمال من «الإيبو» المسيحيين ... وكثير من ضباط الجيش ... مع أن نسبة المسلمين في الشمال ٩٨ بالمئة ... وهذا يدعو إلى الاطمئنان الجزئي ...

كان مجلس أحمدو بيللو عامرًا بالرجال الأخيار، كثيرون منهم ينتمون إلى الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والوهابية ... وهناك عدد من رجال السياسة ... كانت الأحاديث تطوف بشتى الموضوعات ... وعندما جاء ذكر الحالة العامة في البلاد قال أحمدو بيللو : «التسامح يقهر الحقد ...»

رد أحد الجالسين : «التسامح يا مولانا لا يصل لدرجة جعل «جونسون ايرونسي» قائدًا للجيش في الشمال ... أنا أعرف أنه مسيحي متعصب، لا يؤمن جانبه ... وهو من الإيبو ...»

ابتسم أحمدو بيللو وأضاء وجهه نور اليقين وقال : «لا فرق بين الإيبو واليوروبا والهوسا ...»

- «بل هناك أحقاد كامنة ...»
- «يجب أن نتجاهلها من أجل وحدة البلاد ...»
- «في ذلك يكمن خطر رهيب ...»

هز كتفيه في ثقة وقال: «بذور الشر لا تثمر في أرضنا ...»

– «للشر جولات ينتصر فيها ...»

أغمض أحمدو بيللو عينيه وتمتم بآية من القرآن: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾

تنهد المتحدث في ضيق وقال: «إنهم يعيثون الفساد في الشمال ...»

– «إذا ثبت على أحدهم جرم فسنأخذه بحكم الله ...»

– «ما أكثر الجرائم التي تحاك في الظلام ...»

قال أحمدو بيللو: «الظلام يصرع العصابات التي تعشش فيه ...»

– «بل يسترهم ويحميهم ...»

وعاد أحمدو بيللو يقول في دهشة: «لست أدري ماذا يريدون»

رد شيخي «عبد الله» قائلاً: «الطمع ...»

همست: «أجل ...»

وقال شيخي: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ...﴾

ثم نظر إلى أحمدو بيللو قائلاً: «كلما نظرت إلى وجهك يا أمير المسلمين أرى ملامح شهيد يقترب من الجنة ...»

أضاء وجه الأمير وقال في سعادة: «مرحبًا ... مرحبًا ... هذا يوم المنى ...»

الحقيقة أنني شعرت بضيق بالغ، فأنا أعرف أن الأيدي الأجنبية لن تترك نيجيريا تعيش في سلام، وفي نيجيريا ثروات هائلة، وإمكانيات ضخمة، وفيها قوة إسلامية تخيفهم، انجلترا لها أطماع ... وأمريكا تتوثب للانقضاض، وفرنسا تأمل في جزء من الغنيمة ... وإسرائيل تتسلل ... بل ونجحت وأصبح لها خبراء للزراعة وتجفيف المستنقعات في الغرب ... ولها شركة إنشاء وتعمير ضخمة اسمها «نيو جيرسال» ... كل ذلك في الشرق والغرب ... أما الشمال فلم يزل مغلقًا في وجهها ...

وسمعت شيخي عبد الله: «احذروا اليهود ... إنني أراهم هنا ...»

ضحك أحمدو بيللو وقال: «أين هم؟؟ لن تطأ أقدامهم أرض الشمال ما دمت على قيد الحياة ... ولسوف أحاول أن أضيق عليهم الخناق في الجنوب بالتفاهم مع الحكومات المحلية هناك ... اليهود خطر داهم ...»

وأردف شيخي:

إنهم هنا ... أراهم في وجوه الكثيرين

– «تعني أنصارهم ؟»

– «أجل يا أحمدو بيللو ...»

وانتقل الأمير إلى موضوعات شتى، أخذ يتحدث عن زياراته الأخيرة إلى مكة، وعن لقائه مع زعماء العالم الإسلامي هناك، وعن الأمر العجيب الذي لفت نظره، فقد لاحظ أن قضايا العالم الإسلامي يواجهها دائمًا تكتل من قبل الأعداء ... المسلمون في العالم لا ينصفهم أحد، لماذا ؟ وبلاد المسلمين هي حقول الاستنزاف والمؤامرات والتدمير، لماذا ؟ ومذابح الأقليات الإسلامية في أماكن شتى في العالم دون أن يتحرك ضمير أحد من الفلاسفة أو المصلحين، لماذا؟؟

– «المشكلة ليست مشكلة نيجيريا ... ولكنها مشكلة الأمة الإسلامية كلها ... لكي تبحثوا عن حل يريح نيجيريا يجب أن تنظروا إلى بعيد ... إلى الثمانمائة مليون مسلم ... القوة الجبارة التي تستطيع أن تغير وجه التاريخ ... وتعيد الحق إلى نصابه ... فيسود الصفاء العالم ... وتختنق الثعابين، وينحدر الظلام ...»

وعاد شيخي عبد الله يعلق: «نحن لا نفهم الإسلام كما يجب ...»

وفجأة وقف أحمدو بيللوا قائلًا: «صدقت ...»

وهب الجميع واقفين، وعاد أحمدو بيللو يقول: «اجلسوا ...»

وأخذ يجفف العرق الذي يتصبب على جبينه الأسمر ولحيته البيضاء واستطر في انفعال: «التعليم الصحيح هو المخرج ... يا إلهي ... ما زلت أذكر ... عندما كنا نحاول تعليم الأطفال اللغة العربية والقرآن كان المستعمرون يفرضونا علينا ضرائب باهظة ... المسلم

لابد أن يغير اسمه ليدخل المدارس التبشيرية ... المناصب لمن يتنصرون ... المدارس خاضعة للنظام التبشيري ... أي نظام وتعصب هذا؟؟ ولذا قررت إنشاء العديد من المدارس والجامعات ... وسيتعلم الطالب الفيزياء والكيمياء والطب إلى جوار الفقه واللغة العربية وحفظ القرآن ... ولقد أدليت بتصريحات مثل هذه للصحف في مكة المكرمة أثناء الحج ... أتدرون بماذا علق المعلقون على تصريحاتي؟؟ »

وثبت من مكاني متسائلًا : « ماذا قالوا؟؟ »

نظر إلي باسمًا وقال : «قالوا أن أحمدو بيللو لن يعيش طويلًا ...»

– «لماذا يا مولاي ...»

هز رأسه في آسى وقال : « عندما يرى عدوك أنك وضعت يدك على مفتاح الباب المغلق الذي سيوصلك إلى بر الأمان والحرية والنجاح ... يفقد رشده ... يطير صوابه ... يندفع كمجنون ليقضي عليك ... لأن فرصة انتصاره سوف تضيع إلى الأبد ... إنه يغامر ... هل فهمت يا ولدي ؟ »

وساد صمت مقدس ، العيون الوفية المخلصة ترمق الرجل العظيم الجالس على كرسي الحكم ، الرجل الذي لا يرهب العدو لا يخاف الموت ، ولا يهرب من مواجهة الحق ، وقال شيخي « عبد الله » قاطعًا حبل الصمت المقدس : « نحن لا شيء بالنسبة لعظمة الله ... في حروب الردة مات المئات من العلماء وحفظة كتاب الله ... والطريق إلى الله محفوف بالمكاره ...

التحيات لمن حج واعتمر ... التحيات لمن استقرت في قلبه عقيدة التوحيد ... والتحيات للشهداء ...»

وعند العودة إلى بيت شيخي همست : « شيخي ... قلبي يرتجف من الخوف »

– « لا قيمة لذلك »

– «وأبحث عن الاطمئنان ...»

– « ستجده »
– « كيف؟؟ »
– « عندما تطلق شهوات الدنيا ...»
– « فلا داعي للزواج إذن »
ضحك شيخي واحتقن وجهه وقال: «الزواج سنة الله وليس شهوة من الشهوات ...»
وعدت أقول: «الدنيا مغرية يا شيخي ...»
– « ولهذا كانت معركة الإنسان مع نفسه ...»
– « لماذا خلقها الله هكذا؟؟ »
– « أستغفر الله ... لا يسأل عما يفعل ...»
– « دائمًا أبحث عن علة الأشياء ... عن حكمتها ...»
– « فكر كيف شئت يا عثمان ... لكن حذار أن تقترب من حافة الشك، أو يخالط فكرك نازعة تمرد على حكمة الله ...»
– « كيف؟؟ »
– « ثق في عدل الله وحكمته ...»
– « نعم ...»
– « أنا المخلوق وهو الخالق ...»
– « أجل ...»
– « وشتان بين العقل ... وخالق العقل ...»
– « أجل ...»
– « وميدان الروح فسيح ... والبصيرة الصافية مجالات لا حدود لها ...»
وانهمرت دموعي فجأة، وأخذت أنشج، وربت شيخي على رأسي وقال في رضى: «لما تبكي؟؟ »
– « لأني ضعيف ... وأخاف يوم الحساب ...»
– « بل أنت قوي قوي بدموعك ...»
– « أفي الدموع قوة؟؟ »

– « أجل ... دموع الندم تغسل ثوب النفس وتمحو الوساوس ... الدموع اعتراف ... الجاحدون لا يبكون »

وهمست لشيخي: «أبكي كثيرًا في الليالي الطويلة ... ودخلت « جاماكا » حياتي كشيطان جميل ... هل هذا هو الحب؟؟ »

قال شيخي في جدية ظاهرة: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ...»

– « ولهذا أخرجتها من حياتي ...»

– « لماذا؟؟ »

– « لأن حبها طريق إلى الشرك ...»

– « ليس تمامًا »

– « كيف؟؟ »

– «من يحب الله ورسوله يستطيع أن يحب خلقه ... حبهما هو المدخل ... هو الحب الكبير الذي يظلل بأفرعه السامقة الخضراء ... كل الدنيا ... أتفهم؟؟ كل الدنيا ...»

– « أشعر بالحيرة ...»

– « العبادة يا ولدي حب ... والجهاد في سبيل الله حب ... وتنفيذ شرائع الله حب ... هل فهمت الحب؟؟ »

– «فهمت أن الحب شيء غير الشهوة ...»

– « وفي الحب الحلال قدر من الشهوة لا فكاك منها ...»

قلت في فرح مباغت: « هذا ما أردت أن أعرفه بالضبط ...»

ضحك شيخي قائلًا: «ما زلت تفكر الوقت في « جاماكا » ...»

– « لا أنكر ...»

– « متى ستسافر؟؟ »

– « غدًا ... بإذن الله ...»

– « المعركة في الطريق ستكون مريرة ...»

– « سأذهب بغنمي وأعود بثمنها ...»

– « الشهوات جنود الشيطان ... ستجدها في كل مكان ...»

– «يا إلهي ... العدو الظاهر من السهل التغلب عليه ...»
– «وعدوك الخفي يا ولدي هو الجدير بالحرب ...»
كانت كلمات شيخي جديرة بالنظر والتفكير، وعباراته تحمل شحنات قوية مثيرة، تفتح منافذ العقل والروح، وتملأ وجودي بأريج من نوع عجيب أشعر بها ترطب كياني، وتزودني بزاد لا ينفد، فأحس بالامتلاء قلبًا وروحًا وفكرًا ...
قلت في لهفة: «أتدري لماذا يشقى الإنسان في عصرنا ؟»
– «سؤال في غاية الأهمية»
– «لأنه لم يجد بعد طريقه الصحيح ...»
– «أجل ...»
– «العذاب نابع من الشك والتردد والشعور بالضياع ...»
– «لكن هذه الحالة تنتابني أنا الآخر في بعض الأحيان ...»
– «نعم ... في بعض الأحيان ... كلنا ... أنا ... أنت ... مجموعة من المواقف النفسية ... أتفهم؟؟»
فهي مسألة نسبية إذن ... ولهذا كانت التوبة ... وكانت منازل الأبرار ... حياتنا كلها طريق طويل للتدريب ... رياضة مستمرة ... والأعمال بالنيات ... وإبراهيم قال لربه:
«﴿بلى، ولكن ليطمئن قلبي﴾ ... أراد أن يرى المعجزة بعينيه ...»
اختطفت يد شيخي وأغرقتها بالقبلات والدموع ...

❁❁❁

الفصل ٥

وفي صباح أحد الأيام وصلت إلى «لاجوس» عاصمة نيجيريا الاتحادية، وهي تقع على جزيرة تتصل بالشاطئ بواسطة جسر كبير، وهي مدينة تعج بالحركة والنشاط، إذ يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون، نصفهم من المسلمين، وتنقسم إلى حي قديم للزنوج وإلى أحياء أوربية حديثة، وفيها حي للتجار العرب يعرف بالحي العربي، وفي لاجوس يختلط سماسرة السياسة والتجارة والأديان، ويمتزج الإيبو باليوروبا والهوسا، وتدق أجراس الكنائس الكبيرة، وينطلق صوت بعض المؤذنين، إنني أنظر إلى المدينة فأجد ملامحها غريبة، هناك كثير من الوجوه لا تستطيع أن تميزها عن غيرها ... هكذا هي لاجوس، مدينة بلا تميز، ليس لها سمات محددة، وجوه سمراء وصفراء وبيضاء وحمراء، ورهبان وشيوخ وبحارة وعساكر، كل يبحث لنفسه عن مكان يركن إليه، وفي القديم كان الأوربيون يطلقون على شواطئنا «ساحل العبيد» ...

وكانوا يسوقون أسرًا بكاملها أمامهم كما تساق الأغنام، ويحشرونهم في السفن القذرة أطفالًا ونساء وشيبًا وشبانًا ويلقون بهم على شواطئ الدنيا الجديدة ... أمريكا ... عشرون مليونًا صدرتها أفريقيا لأمريكا على أيدي التجار والقراصنة الأوربيين ... أي عذاب كان يعاني منه هؤلاء التعساء ...

واليوم حلت البضائع والمواد الخام مكان العبيد ... يصدرون البشر، واليوم يصدرون جهود البشر ... الأفريقي هنا أو في أمريكا ... يعمل ويعمل دائمًا من أجلهم ومن أجل سماسرتهم ... ولا يجني الأفريقي سوى القليل ... المضحك أن أوربا حررت العبيد ...

نعم ، لكن لماذا؟؟

التفسير الحقيقي شيء آخر غير ما يكتبه المؤرخون والمبشرون ... لقد قضت بريطانيا على سوق العبيد حتى ترتفع أجور العمال في أمريكا ، وتقل الأيدي العاملة هناك ، فترتفع أسعار التكلفة ... فلا تستطيع أمريكا أن تنافس سلع أوربا ... وكان شيخي دائمًا يقول إنما الأعمال بالنيات ... ما أسوأ نيات المستعمرين ...

وأخيرًا ذهبت إلى الحي العربي ... أشعر بكثير من الاطمئنان وأنا أمضى في طريقي إلى هذا الحي ، كأنه جزء من بيتي ... وهناك فندق عتيق أوى إليه دائمًا ، تمتلكه أرملة مهاجرة من إحدى البلاد العربية ...

– « طاب مساؤك يا سيدة « علية »

قالت وهي تستقبلني بابتسامة لا انفعال فيها : « حجرتك لحسن الحظ خالية ... إنني سعيدة برؤيتك ... »

– « شكرًا ... »

قلتها وأنا أتناول منها المفتاح ثم استطردت : « هل لديك أحد من تجار الأغنام؟؟ »

ضحكت وقالت : « عندما تنزل إلى صالة الطعام ... فستجد الصالة كالحظيرة ... »

لوحت بسبابتي متوعدًا في مزاح : « لا أحب السخرية ... »

– « بعض المزاح في هذه الحياة الرتيبة الكئيبة ... »

– « أما زلت ترفضين الزواج ... »

ابتسمت قائلة : « سوف أتزوج عندما أرى أن طالب يدي لا ينظر إلي كما ينظر إلى صفقة رابحة ... »

وهممت أن أتكلم لكنها قاطعتني قائلة : « وأنت؟؟ »

وعادت إلي الذكريات ، قلت وأنا أسرع صوب السلم : « عندما أجد امرأة مؤمنة ... »

هتفت في أعقابي : « الحياة تجارة ... »

– «لكنك ترفضين التجارة في مسائل الزواج ...»
– «بالضبط ... أرفض الطمع ...»

ووجدتني أعود إليها ثانية لأقول: «عندما يتعلق قلبك ببشر يا مدام عليه ... فستذوب كل الاعتراضات ...»

– «وأنت؟؟»

نظرت إلي في اهتمام وشردت قليلًا، ثم قالت: «لو امتلأ قلبك بحب مومس، فسيكون من الصعب عليك التخلص منها ... نحن لعب صغيرة ... تافهة ... لا إرادة لها في يد القدر ...»

– «أتؤمنين بذلك ؟»
– «بكل تأكيد ...»
– «ففيم الاعتراض إذن على طالبي الزواج منك؟؟»
– «اللعبة لم تتم ... من يدري؟؟ قد أسقط في يد أكبر التجار جشعًا ...»

وتنهدت قائلة: «اذهب لتغير ملابسك ... ولتفكر أولًا في غنمك ...»

كنت – كأبي – معروفًا جيدًا لدى الكثيرين من مشتري الأغنام في «لاجوس» هذه المدينة تستهلك الكثير من اللحوم، كما تستهلك الكثير من الخمر، هنا بعض القبائل توزع الخمر في المآتم، لا أعلم من أين أتوا بهذا التقليد الغريب، وأثناء تناول الغذاء في الصالة الكبيرة بالفندق التقيت ببعض التجارة، قال لي كبيرهم: «انظر ... الرجل الجالس هناك في أقصى اليسار ... هو الذي سيشترى غنمك ... يجب أن تحذر منه، إنه مساوم من الطراز الأول ...»

كان الرجل الذي أشار إليه يأكل وعيناه تتحركان في كل اتجاه، وأمامه كأس من الويسكى، وكان يتلفت، وكأنه من عصابة لا يعرف أفرادها، في عينيه مكر وشكوك وقوة خفية، الحقيقة إنني لم أرتح لمنظره، وجهه المشرب بالحمرة يوحي بأنه إنجليزي، كرهته لأول وهلة، انطباع لم أستطع منه فكاكًا، لكن لماذا أبيع لهذا الشخص

بالذات ، قال صديقي التاجر القديم : « إنه نوع من التنظيم بيننا وبين المشترين ...»
وضحك ضحكة عالية وقال : «بل لعله نوع من الاحتكار ...»
أردفت قائلًا : « أو التواطؤ ...»
- « ربما ...»
قالها وهو يهز كتفيه ، فعلقت متسائلًا : «لم كل هذا؟؟»
- «نحن مضطرون لذلك ، لأن كبار المستهلكين في المدينة لا يأخذون ما يحتاجون إليه من أغنام إلا عن طريق الوسطاء ... وهذا أحد الوسطاء ...»
لكني استبعدت مشاعري الشخصية ، البيع والشراء مسألة لا دخل للعواطف فيها ، لقد قطعت المسافات الطويلة بقطعاني ، وتكبدت المشاق ، واستأجرت عددًا من الحراس ، وأريد أن أزيح عن كاهلي عبء هذه الصفقة الكبيرة ، إن هي إلا ساعة أو بعض ساعة ، وأكون قد انتهيت مما أنا بصدده ، وبعد أن تناولت طعامي قصدت الرجل الجالس وحده ، كان قد انتهى من طعامه وشرابه ، ألقيت عليه التحية ، رمقني بنظرات متفحصة ، ورد التحية بفتور ، لشد ما يضايقني الاستقبال الخالي من الحرارة ، قال بإنجليزية غير أصيلة : «عرفت أنك هنا ، كم رأسًا معك؟؟»
استغفرت الله ، وأخذت أعطيه أرقام القطعان ، وحالتها العامة ، قال بإيجاز وهو يجفف فمه بمنديل قاتم اللون : «بكم تبيع؟؟»
- « أنت المشتري ...»
- «حسنًا ... لا أعرف المساومة ...»
وكم كانت دهشتي عندما أخبرني بثمن بخس لم أتعود البيع به من قبل ، فأبديت رفضي على الفور وأنا أكاد أصفعه ، غير أني كنت متمالكًا تمامًا لأعصابي ، يجب أن يكون التاجر صبورًا متسامحًا ، قال وهو يزفر في ضيق : «لن تجد ثمنًا أكثر من ذلك ...»
ووجدتني أنصرف عنه ، تركت مائدته ثائرًا ، وعدت أرتجف غيظًا

إلى مكاني القديم ، مال على التاجر الأول الذي أرشدني عنه قائلًا : « لا تتضايق ...»

– « إنه غريب الشأن »

– « هكذا دائمًا اليهود ...»

صرخت في دهشة : « أهو يهودي؟؟ »

– « أجل إسرائيلي محنك... وصاحب أكبر شركة لتجارة اللحوم ...»

قلت في إصرار والشرر يتطاير من عيني : «لن أبيعها له ولو نفقت كلها وأكلتها الوحوش ...»

– « ستجد مشقة بالغة في بيعها ...»

– « ليكن ... سأبيعها للجزارين »

– « بالطبع هذا أفضل ، لكن قطعانك كثيرة ، وستبذل جهدًا كبيرًا في المرور على الجزارين ، أنت تحتاج لأكثر من خمسين جزارًا ...»

وخرجت إلى الشارع ، المدينة شديدة الرطوبة ، والكآبة تجثم على قلبي ، وهموم القطعان التي لابد من بيعها تبعث الضيق في نفسي ، وتذكرت شيخي « عبد الله »... كثيرًا ما كان يحدثنا عن الصبر والاعتماد على الله ، وأن أرزاقنا في السماء ، وهي محسوبة بدقة ، وملت على أقرب مسجد لأؤدي الفريضة ، وفي المسجد شعرت ببرد اليقين والهدوء والسلام والطمأنينة تترقرقان في جنبات المسجد وهناك بعض الكتب العربية القديمة ، تناولت واحدًا وأخذت أقرأ بعض الأوراد والتسابيح ، ثم خرجت بعد ساعة إلى الشارع ... إنني أمضي في بلادي كالمطارد الغريب ، نفس الشعور الذي كنت أشعر به إبان الاحتلال الإنجليزي ، خروج العدو لم يغير كثيرًا من مشاعري ، لأني أرى أنواعًا جديدة من العبث والاستغلال والكبت ، شعبي في قبضة مارد ضخم يلعب بمصيره بطريقة غريبة ، الخبث هو الخطة الجديدة ، والسيطرة على منافذ الاقتصاد والمال والتجارة ، تشكل خطرًا واستعمارًا من نوع جديد .

قد يكون الغريب إنني استطعت في اليوم التالي بيع كل ما عندي من الأغنام في خلال بضع ساعات، فقد استطاع أحد التجار العرب أن يرشدني إلى متعهد للتغذية في الجيش، وكان الثمن ضعف ما عرضه اليهودي ...

ولاجوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة، ووراءها يكمن المخطط الصهيوني، هذه أندية القمار، وتلك حانات الرقص والخمر، وهناك بيوت الدعارة، وللأسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات، وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة، العدو يشتري ويبيع، لكن كل شيء يعود إلى جيبه، والجماعات السياسية تتناحر من أجل منصب وزاري، أو الفوز بمقعد في الانتخابات العامة والفتن تشتعل بين المسلمين والوثنيين والمتنصرين، والأمور تدار بطريقة شيطانية خبيثة ... لشد ما كرهت «لاجوس» عاصمتي التي أتمنى أن أحبها، لكنها الآن أصبحت رمزًا للمؤامرات والاستسلام والغفلة ... والجميع ضحايا أو لعبة متهافتة في أيدي الماكرين والدهاة ...

في المساء تذكرت «جاماكا» هذه الملعونة ما زال خيالها يطاردني، يخيل إلي أنني أسمع غناءها في الحانات، وأسمع ألحانها الغجرية الصارخة وأتصورها وهي تتمايل بجوار الكؤوس وشياطين الرغبة يلعقون خديها ... وتبدو لي كأنها تسخر مني وتقول: «انظر العالم من حولك ... الجميع يستمتعون ... ويمرحون ... ولا يفكرون في الغد، وأنت وحدك، متشبث بالطهر والعفاف، أنت تعيش على الهامش ... وليس وراء المجهول غير الموت الأبدي ...»

كلماتها المتخيلة ترن في أذني، صوتها العابث المثير يهز كياني ...

«جاماكا» هي نيجيريا الجنوب اللاهي المتمزق المنطلق في مجال الشهوة والعربدة، الساقط بين براثن الغدر والخيبة، الذي باع نفسه للشيطان ...

وفتحت حقيبتي لأبحث عن المصحف ... إنه الجرعة الشافية التي

أشربها كلما تعبت الروح، وسقم القلب، وراودتني الأحزان والأوهام، ونخر في فؤادي الوهن، واستبدت بي الهموم ... وحي العرب للأسف تغير كثيرًا ... المسلمون فيه لا يتحدثون كثيرًا عن الله، أحاديثهم عن التجارة والمال وأسعار البورصة، أغلبهم من شيعة إيران ولبنان وسوريا وشرق أفريقيا ... كان آباؤهم غير ذلك، هكذا حدثني أبي ... كانوا يسافرون للتجارة حاملين مصاحفهم ودعوتهم إلى الله حتى هدى الله بهم خلقًا كثيرًا، أما اليوم فقد تغيرت الحال، وساءت الأمور، وأصبح همهم المال والدنيا ...

قلت لأحد أصدقائي القدامى: «لقد نسيتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...»

ابتسم في يأس وقال: «ليس لدي الوعاظ وقت ليقولوا، وليس لدي السامعين وقت ليسمعوا ...»

– «إننا نهدم بذلك ديننا ...»

– «نحن نصلي ونصوم ... ونحتشد في يوم الجمعة ...»

– «الدعوة إلى الله شيء آخر ...»

– «ماذا تعني؟؟»

– «يجب أن نمشي في الشوارع والحوانيت والغابات ...»

هز رأسه قائلًا: «هذا حق ...»

– «ففيم التقاعس؟؟»

تنهد في ألم وقال: «الدعاة هنا مطاردون ... إنهم يصطدمون بعقبات لا يدري أحد من أين تنطلق، كثيرون منهم يبعدون، أو يصرعون في الظلام، أو يحرمون من فرص الحياة، أو يطردون من الوظائف، تحت أسباب غريبة لا تمت إلى الحقيقة بصلة ... وقانا الله وإياك شر الفتن ...»

لم أنم ليلتي الأخيرة في لاجوس كما يجب، فقد أمضني الأرق والتفكير، وتذكرت وصايا شيخي، أحصيت ما معي من مال، وقررت أن أخوض المستنقعات والغابات داخل أرض الإيبو في الشرق، داعيًا

إلى الله قال أحد رفاقي - وقد صحبته معي لحراسة القطيع واسمه عبد الرحيم : «نحن نخاطر بأنفسنا ...»

- «أعرف ...»

- «ففيم المغامرة؟؟»

- «إن صوت الله يجب أن يسمع»

- «لماذا خلقنا يا عبد الرحيم ؟»

- «لنعيش يا عثمان؟؟»

- «الدعوة إلى الله حياة ... والموت في سبيله خلود ...»

- «لكننا نحمل وصايا الأنبياء ...»

وشردت ببصري إلى بعيد وأنا أردد : «أنا على موعد مع الجنة ... حدثني شيخي عن جنة عرضها السماوات والأرض، تجري من تحتها الأنهار، وعن الصالحين الذين ينعمون بأروع ثواب ... برؤية الله . وأنا أرى الطريق جيدًا»

«ولن أرجع إلا إذا ترددت كلماتي في جنبات الغابات وسمعها البشر في أي موقع أنزل به ....»

وهمس عبد الرحيم : «أنا معك، وأمري إلى الله ...»

- «أما هذه يا عثمان، فلن أتقاضي عليها أجرًا ... أريد أن أقدم شيئًا لوجه الله ... شتان بين رحلة التجارة ورحلة العبادة ... فلنسر على بركة الله ...»

وترقرقت الدموع في عيني عبد الرحيم، فضممته إلى صدري في حنان، وامتزجت دموعنا ...

واستأجرنا سيارة لاندروفر، وانطلقنا إلى الشرق في الصباح الباكر ...

❁❁❁

الفصل ٦

إن اختراق الغابات الاستوائية أمر مثير للغاية، والضرب في جنباتها يكمن في طياته الموت، النوم فيها مليء بالأحلام المزعجة، والسير نهارًا يورث القلق، فالأشجار كثيفة، وبعضها عال جدًا، قد يصل ارتفاعها إلى ستين مترًا، وتبدو الأشجار المتلاحمة العالية، على شكل عدة طبقات، وهناك أشجار تلتف على بعضها وتتسامى طلبًا للنور، فتصبح ذات جذوع ضئيلة بالنسبة لفروعها الكثيرة المتشابكة، والجذور تضرب في باطن الأرض إلى أعماق بعيدة، وبعض هذه الجذور على سطح الأرض وتمتد كالقضبان المتوازية أو المتقاطعة، وتوجد شجرة «الباوْباب» التي تعرف بجذوعها الضخمة، والتي يتخذ بعض الأفراد فيها مأوى لهم بحفر الجذوع بعد قطعها، وفي تلك الغابات يكاد يعيش الإنسان في ظلام دائم، فالنهار تحجب الأغصان المتشابكة، والأشجار المتزاحمة ضوءه، والليل يزيدها حلكة ورعبًا، وغالبًا ما يتسلق الإنسان أو الحيوان تلك الغابات ويعيش بعيدًا عن الأرض تجنبًا للنمل الطيار الكبير، والأفاعي المخيفة، وذباب «تسي تسي» وغير ذلك من الهوام والحشرات.

وفي مناطق الغابات يعيش السكان على قطع الغابات، ويزرعون مكانها الكاكاو وشجر زيت النخيل «النارجيل» وجوز الهند وغيرها، والبعض يعيش على الصيد البري في الغابات، وقسم ضئيل يعتمد على التجارة، ويصعب تربية الماشية في هذه الغابات بسبب سوء المناخ، وللضرر الكبير الذي تسببه «تسي تسي»

وقد اكتشف الفحم في بعض مناطق «الإيبو»، لكن أغلب العمال العاملين فيه من المسلمين الزنوج، كانت وجهتي إذن مناطق الإيبو،

خاصة الغابات ... وقبائل الإيبو عدة ملايين ، وهم متأخرون بالنسبة لليوروبا في الغرب ... قراهم صغيرة وتعتمد على النخيل الزيتي في حياتها ... ولقد انتشرت النصرانية بين كثيرين منهم عن طريق المبشرين والتسهيلات التي كان يقدمها لهم الاستعمار ...

وهناك بعض الغابات التي قطعت وظهر مكانها أشجار جوز الهند والكاكاو والموز والفواكه الأخرى ... وهذه الغابات أكثر ما تكون في وادي نهر « النيجر » و « البينوئي » ...

لقد دخل الإسلام نيجيريا عن طرق الشمال ، أما النصرانية فقد أتت مع المستعمرين من الجنوب ، إلا أن هناك كثيرًا من القبائل يدينون بالوثنية ويعبدون قوى الطبيعة ، ويتركز أكثر هؤلاء في الجنوب في منطقة الغابات ...

قال لي صديقي عبد الرحيم : « أعتقد أنك لن تستطيع أن تنجز شيئًا ذا بال في هذه الجولة القصيرة ، لكي تدعو هؤلاء الناس إلى دين الله الحق يجب أن تبقى بينهم سنين طويلة ...»

قلت ونحن نسرع بالسيارة التي أقودها بنفسي : « أتعرف قصة « نواكوى »؟؟ »

– « من نواكوى؟؟ »

– « أحد المبشرين بالدين المسيحي ...»

– « ماذا جرى له؟؟ »

– « سافر ذات يوم إلى السنغال ... والتقى بأحد علماء الدين المسلمين هناك ... وكم كانت دهشتي حينما اكتشف من خلال المناقشة أن الإسلام هو ما يجب أن يؤمن به ... وعندما عاد إلى قريته النيجيرية ... شرح للقرية ... آمن به أكثر من ستة آلاف شخص ... أترى ... رجل واحد هداه الله إلى اليقين في وقت قصير تبعه آلاف من الإيبو »

« وبرغم الأمل والثقة اللذين يعمران قلبي إلا إني كنت مدركًا لعظم العمل الذي أقوم به ، كنت واثقًا أن الشعب الذي يجمعه هدف أسمى ،

وتربطه عقيدة سمحاء، قادر على أن يثبت أمام أعاصير الغزاة، ومؤامرات الأعداء ...»

وأطبق الليل، والغابة تبدو شاسعة كصحراء من الشك والاضطراب والخطر، وقال عبد الرحيم والمطر يتساقط، ويتردد صدى سقوطه على الأوراق الخضراء في شتى الأنحاء: «لابد أن نستريح ...»

- «بالطبع ...»

- «فالليل يا صديقي وعر المسالك ...»

وأضأت كشافًا كهربائيًا، كما أضأت مصابيح السيارة، في الطريق الضيق الممهد بطريقة بدائية، وأخذنا نبحث يمنة ويسرة عن مكان آمن ...

- «الجلوس على سطح الأرض لا يؤمن جانبه ...»

- «لم لا ننام داخل السيارة؟؟»

هذا ما اقترحته لكن عبيد الرحيم قال: «فلنتسلق هذه الشجرة الضخمة ولنتخذ لنا موقعًا فوقها، ولنترك السيارة كما هي، كانت فكرة صديقي تعني الأمن الكافي لنا، فلو حاول أحد أن ينقض على السيارة لما وجد بداخلها إنسانًا، وبذلك نستطيع أن نرقب الطريق والسيارة، ونتجنب المفاجآت... مجرد خدعة بريئة لا تعني سوى الحيطة والحذر، إن شعورنا مهما كان الأمر يختلف عن أي شعور آخر لدى أولئك المغامرين الباحثين عن الثروة أو الهادفين للسيطرة على القبائل، أو الذين تحركهم أهداف سياسية، نحن غير هؤلاء جميعًا إذ ليس لنا مقصد سوى أن ندعو إلى الله، وهذا يعمق شعورنا بالرضى والثقة والصبر على المكارة ...»

- «عبد الرحيم ...»

- «ماذا تريد مني؟؟ إن ما أفكر فيه الآن الأكل يا عثمان ...»

- «سوف نأكل ونتحدث ...»

الأفضل أن نأكل في صمت ...

- «أردت أن أقول أنه علينا أن نتناوب لنوم، نصف الليل الأول

أنام فيه ، وأنت في النصف الثاني ...»

– «يخيل إلي أنني لن أستطيع النوم مطلقًا ...»

– « هل أنت خائف يا عبد الرحيم »

– « أنا لا أخاف الموت ، لكني ما دمت حيًا ، فإن هناك عواطف لا فكاك منها في قلب الرجل الحي »

– « أعلم ، نحن بشر ...»

أكلنا وشربنا ، واضطجعت على بطانية سميكة ووضعت حذائي كوسادة تحت رأسي ، بينما أخذ عبد الرحيم يدندن بأغنية أفريقية يترنم بها بعض الإيبو في الشمال ، لعله حفظها عنهم ، قلت : « أتعرف معنى لهذه الأغنية الشعبية؟؟ »

قال عبد الرحيم مترجمًا للأغنية : «حبيبتي السمراء الفاتنة »

– «تتواثب فوق الأغصان الخضراء المجدولة »

– «تحمل في عينيها الشوق العارم ...»

– «تنساب أغانيها الحلوة »

– «كالسحر العابق في قلب الغابة »

– « المارد يحتضن طبوله ...»

– « ضربات متوهجة النبرات »

– « ودمائي يشعلها اللحن الأكبر »

– « الحب هو اللحن الأكبر »

– « حبيبتي السمراء الفاتنة »

– « أبوها ملك قبيلة »

– « تحرسه سهام لا ترحم »

– « أنا أبحث عن ثغرة »

– « أنفذ منها لفتاتي الحلوة ...»

ولم أستطع أن أتابع أشعار « الإيبو » فقد غلبني النوم ، ولم أعد أعي شيئًا ولست أدرى أطال الوقت أم قصر ، فقد استيقظت على حركة عنيفة ، وضربات متتالية ، ونظرت حولي ، كان عبد الرحيم يضئ

الكشاف ويهوى بمؤخر «البندقية» في ضربات قوية، وصحت: «ماذا جرى؟؟»

وجريت صوبه، كان يقتل حية كبيرة

- «هل أصابك مكروه»

- «الحمد لله، لقد اكتشفتها في الوقت المناسب»

كان يلهث، واستطرد يقول: «تستطيع أن تكمل نومك ...»

- «لا أستطيع، أشعر بأني استرحت بما فيه الكفاية ...»

ولم أستجب لإلحاح عبد الرحيم كي أستأنف النوم، فما كان منه إلا أن استلم مكاني، وراح في سبات عميق بعد دقائق معدودة وجلست وحدي ممسكًا بغدارتي، أدقق النظر فيما حولي، الظلمات المتكاثفة تختلط بالخضرة الزرقاء وقطرات مطر تتساقط وعشرات الأصوات للهوام والحشرات والحيوانات الغريبة تمتزج كلها فتخرج ضجة لا يمكن وصفها بدقة، وبدت لي الغابة المكتظة بالأشجار والحيوانات وكأنها صحراء مليئة بالغموض الفسيح... هنا لا تكاد توجد أية معالم... كالصحراء تمامًا... والإنسان يلجأ إلى الفطرة والإيعاز الداخلي ليجد طريقه، معرفة الجهات الأصلية وقليل من الجغرافيا يسهل مهمة للسير في هذه الغابات الكثيفة...

وتسلل إلينا ضوء خفيف بعد أن أشرقت الشمس، وكان من المتوقع أن نترك هذا الوادي الذى تغرقه الغابات، ونبلغ تلا مرتفعًا بعد السير بضع ساعات، واستيقظنا وتناولنا القليل من الطعام، وشرب كل منا كوبًا من الشاي ثم استأنفنا المسير...

قال عبد الرحيم والسيارة تعلو وتهبط في الطريق الضيق غير الممهد: «أتعتقد أن للحياة قيمة ؟»

- «قيمتها في طاعة الله ...»

سكت عبد الرحيم ولم يعلق بكلمة، وبعد دقائق قال: «وما هي طاعة الله؟؟»

- «تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه يا عبد الرحيم ...»

- « أي أوامر ونواه؟؟ كل ذي ملة له أوامره ونواهيه ...»

- « الفضائل في كل دين تكاد تكون واحدة ، وقد أتى محمد ﷺ بالكلمة الأخيرة ، ولم يتنكر لما سبقه من أديان إلا ما تناولته يد التحريف ...»

هز عبد الرحيم رأسه قائلًا : « صدقت ...»

وتنهد ، ثم قال : « إذن قيمة الحياة في الطاعة »

- « أجل ...»

- « ما أعظم أن يأوي الناس جميعًا إلى طاعة الله ...»

- « ولهذا نقتحم الغابات ، ونغالب المشاق ...»

أشرق وجه عبد الرحيم بالفرحة الغامرة وقال : « أنا سعيد جدًا بهذه الرحلة الطيبة ...»

وضغطت فجأة على كابحة السيارة فتوقفت عندما سمعنا صيحة مميزة انطلقت على مقربة منا .

- « ماذا هناك يا عبد الرحيم؟؟ »

- « لعلنا اقتربنا من إحدى القرى »

- « هذه الصيحة - حسبما أعتقد - تنبي عن قدوم قوم غرباء ، أعتقد أن رجلًا من الإيبو يخبر قبيلته بمجيئنا ...»

- « هو ذاك ...»

وما أن أستأنفنا المسير ، واقتربنا من حافة الغابة ، حتى وجدنا أنفسنا محاطين بعدد كبير من الرجال العراة تمامًا وفي أيديهن السهام المشرعة ، وبعضهم يحمل بنادق إنجليزية حديثة الصنع ، لم نصب بشيء من الخوف أو الارتباك ، فهذه طبيعة الإيبو إذا ما اخترق عزلتهم غريب ، أغلقت السيارة ، وضممت يدي محييًا ، وأنا أهز

رأسي توقيرًا لزعيمهم ، ثم قلت : « جئنا لمقابلة الأمير ...»

رد أحدهم بلغة الإيبو : «من أنتم؟؟ »

– « ضيوف؟؟ »

ضحك وقد بدا على وجهه شيء من الاطمئنان وقال : « هكذا يقول كل من يأتي إلى هنا ، لعلكم تجار؟؟ »

– « بل جئنا لغاية نبيلة ...»

قال قائدهم ويبدو أنه رجل محنك طحنته التجارب : « هذا ما سنعرفه فيما بعد »

وأشار إلى بعض رجاله فركبوا السيارة ، وجاء هو وجلس إلى جوار عبد الرحيم من الخارج ، ثم أعطى الإشارة بالسير ، فانطلقنا حسب إرشاداته ، بقينا سائرين حتى بلغنا مجلس الأمير ، كان في حوالي الخمسين من عمره ، قوي البنية ، حاد النظرات ، يلبس كثيرًا من عقود الخرز ، ويحيطه من حوله بمزيد من التجلة والفخار وعلى الرغم من أن ملامحنا توحي بأننا غير غرباء إلا أنني قلت في ثقة : « نحن إخوة ... قدمنا من نيجيريا الشمال ...»

هز رأسه محييًا ، فيما ما معناه ، إننا في بلدنا ، وأننا على الرحبة والسعة ، ودار بيننا حديث طويل عن الأحوال العامة والتجارة وعن جمال مدينة سوكوتو وأحمد بيللو وغير ذلك من الأمور ...

الشيء الغريب الذي لفت نظري ، هو أنه بعد ساعة من وصولنا فوجئنا بقدوم أحد المبشرين الأوربيين ، الذي حيا شيخ القبيلة أجمل تحية ، ثم صافحنا وهو يقول : «توم ... الأب توم ... يسعدني أن أرحب بكم »

يتكلم من مركز القوة ، كلماته تعني أن الأرض أرضه ، والبيت

بيته ، يبدو أن مهمتنا هنا ستكون صعبة ، وفكرت آنذاك أن نترك القرية ، ثم ننتقل إلى مكان آخر ، وكان الأب توم «يرمقنا طول الوقت بعينيه النافذتين من تحت المنظار الطبي الصافي الذي يبدو منسجمًا تمامًا مع وجهه الأشقر ، والصليب الذهبي الذي يستقر على صدره ، وملبسه الكهنوتي البالغ النظافة ، قال الأب توم : «أية مهمة نستطيع أن نؤديها لكم ...»

قلت في شيء من الضيق المكظوم : «لقد جئنا لأمير القبيلة»

– «أمير القبيلة رجل طيب ، ويرحب بالغرباء ...»

قلت في حدة : «لسنا غرباء ...»

– «يبدو أنكم من نيجيريا الشمال»

– «أنت تعلم أن نيجيريا بلد واحد أيها الأب توم ...»

– «بالتأكيد ...»

ثم عاد توم يقول : «يبدو إنكم لم تزوروا الإيبو منذ زمن طويل ...»

– «نعم ...»

– «الدنيا تتغير ... هم الآن أكثر تحضرًا ومدنية عن ذى قبل ، ويدركون أن لهم رسالة في الحياة ، ويقتربون أكثر وأكثر من ملكوت السيد المسيح ... المسيحيون منهم مسيحيون حقيقيون ...»

التفت إلى أمير القبيلة مستأذنًا : «نريد أن نستريح بعض الوقت ، ونود أن نلتقي في المرة القادمة على انفراد ...»

تدخل الأب توم قائلًا : «حسنًا ... أنا أنصرف بدوري ... إذ لابد من المرور على المدرسة التي أشرف عليها ، ولابد أن أعرج على المستوصف الصغير الذي نداوي به المرضى ... يسعدني أن تزوروني في منشآتي هنا ستجدون أيضًا مكتبة لاهوتية جميلة بها عدد لا بأس به من الكتب الإنجليزية القيمة ...»

وانصرف الأب توم قبل أن ننصرف ...

قال عبد الرحيم بعد أن استقر بنا المقام في بيت صغير متواضع جعلته القبيلة للضيافة : «يبدو أننا وصلنا متأخرين ...»

– «لقد جئنا في الساعة التي أرادها الله ...»

– «الأب توم يبدو عليه أنه رجل سياسة أكثر من رجل دين»

– «هو ذاك ...»

– «قد يستطيع أن يفشل مهمتنا ...»

– «سنقول كلمتنا مهما كان الأمر ...»

– «يبدو أن له بعض الجواسيس يخبرونه عن كل قادم جديد ...»

– «بالطبع وإلا لما أتى هكذا بسرعة ...»

وأخذت أمعن الفكر فيما يجب أن أفعله ، وكان لابد أن نقوم بجولة سريعة في أنحاء القرية لنأخذ فكرة عامة عن البيئة التي جئنا إليها ...

❁❁❁

الفصل ٧

أثناء تجوالنا في أنحاء القرية القائمة على أطراف الغابة، والتي تقبع خلفها غابات أخرى، كانت توجه إلينا أسئلة كثيرة، أغلبها ينصب على السبب الذي جئنا من أجله، وكنت أشك أن مصدر هذه الأسئلة هو الأب توم ...

وليس غريبًا أن يثار التساؤل من حولنا كقوم غرباء عن القرية، ومع ذلك فقد كنت أرى عيني «توم» النفاذتين تقفان وراء كل سؤال، إن لدي خبرة طويلة بهؤلاء المبشري الذين يعميهم التعصب أحيانًا عن الصدق، فيعادون الحقيقة أكثر مما يصادقونها، ويعزفون على أوتار التفرقة والشر، ويثيرون الفتن والحزازات، همس عبد الرحيم ونحن نستقر ثانية في بيت الضيافة: «أرى نُذر المتاعب تحوم من حولنا»

قلت في نبرة إصرار: «أنا أكره التحدى، لكن هذه المرة مستعد تمامًا لمواجهة توم»

وعاد عبد الرحيم يقول: «أرى على ملامح وجهه سمات ضابط حرب قديم، وليس رجل دين»

– «ليس غريبًا أن يكون كذلك»

– «إذن فالمعركة بيننا وبينه ستكون حامية الوطيس ...»

– «ليكن ...»

قال عبد الرحيم معترضًا: «نحن لا نملك شيئًا، أما هو فيملك الكثير ...»

– «ماذا تعني؟؟»

– «هو أجنبي، وبعض الناس يتبعونه، ومعه المال والخدمات التي يقدمها لهم، ثم إنه يستطيع أن يوقظ الفتن القديمة التي أثارها الاستعمار بين «الإيبو» و «الهوسا» ... وفي ذلك خطر كبير»

- « استمع إلي جيدًا يا عبد الرحيم ... نحن نملك الصدق ... ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ لقد خرجت أساسًا في رحلة إلى الله ...»

ولم يمض على بقائنا ببيت الضيافة سوى ساعتين أو ثلاثة حتى قدم إلينا رجل من « الإيبو » كان قصير القامة ، كبير الرأس ، ضيق العينين ، ووجدناه أمامنا فجأة ، لم يلق علينا التحية ، استطعت أن أقرأ في عينيه الضيقتين شيئًا ما ، ومع ذلك فقد ابتسمت له مرحبًا ، لم يرد على تحيتي ، وإنما وقف كالصنم بالباب وفي يده رمحه الطويل ، وقال : « ارحلوا عن هنا ...»

قلت في دهشة : « لماذا؟؟ »

- « لا نريدكم في قريتنا ...»

- « لكن زعيم القبيلة رحب بنا »

- « لا يهم ...»

- « ما معنى قولك؟؟ »

- « ومعناه إن لم ترحلوا يصيبكم شر ...»

- « لكننا لم نسئ إليك »

قمت واقتربت منه ، ثم سددت إليه نظرات لا تضطرب وقلت : « أنت لست من الإيبو »

أدهشته كلماتي ، وفتح عينيه على الآخر وقال : « كيف؟؟ »

- « الإيبو إخوة لنا ... ودائمًا يستقبلوننا بالترحاب ويعرفون واجبات الضيافة أكثر من ذلك ...»

ارتبك ، وبدت عليه مظاهر الاضطراب ، وقال : « لماذا جئتم ...»

- « جئنا لخيركم ...»

- « بل جئتم لتخرجونا من ديننا ...»

ضحكت ، وأدركت الدافع وراء كلماته وقلت : « ليست هذه كلماتك ، ولكنها بوحي من الأب توم »

فغر الرجل فاه دهشة وقال : « كيف عرفت؟؟ »

- « لأني أعرف أخلاق الإيبو جيدًا ... وما قلته منذ لحظات غريب

عن أخلاقكم وطباعكم ... إنها كلمات لا يقولها إلا عدو لدود »

- «لكن توم صديقنا، وقد علمنا الكثير، وأغدق علينا من خيره ...»

- « الصداقة الحقيقية لا يعرفها توم ... إنه يعرف مصلحته أين هي ويخدم سادته لذين ضربونا بالرصاص منذ سنين ... هل نسيت الدماء التي أريقت في الغابات، ولونت الجبال، وبعثت الحزن في أنحاء القرى والمدن ...»

ولما لم يجب بكلمة استطردت قائلاً : «حسنًا ... سنرحل، لكن بعد أن نلبي دعوة الزعيم على العشاء ... لا يصح أن نهدر دعوة رجل عظيم مثله ...»

هز رأسه في خجل ومضى لحال سبيله، لكني كنت أرى الخجل والخوف يوشي حركاته ونظراته ...

التقينا في المساء حول أمير القبيلة، كان يجلس وحوله الحراس، والأب توم على مقربة منه، والنار مشتعلة، والسماء بلا قمر، وأخذ الرجال والنسوة يؤدون رقصة قومية حول النار، والطبول تدق في قوة وحرارة، والأغاني ترتفع في نغم أفريقي شجي، كنت أفهم جيدًا معنى أغنيات الإيبو، وكنت أشعر بالاندماج فيها وأتمثلها حقيقة، وأذوب في أحلامها العذراء شعرب برباط عجيب يشدني إلى هؤلاء الناس، وكم كانت دهشتي حينما رأيت عبد الرحيم يثب إلى حلبة الرقص، ويترنم بصوت شجي بأغنيته المحبوبة : «حبيبتي السمراء الفاتنة »

- «تتواثب فوق الأغصان الخضراء المجدولة »
- «تحمل في عينيها الشوق العارم ...»
- «تنساب أغانيها الحلوة »
- «كالسحر العابق في قلب الغابة »
- « أبوها ملك قبيلة »
- «تحرسه سهام لا ترحم »

ونظرت من حولي فوجدت زعيم القبيلة يبتسم في رضى – وسعادة، والابتسامة تضئ وجهه الأسمر، وتتماوج مع انعكاسات النار المشتعلة على وجهه ووجدت رجال القبيلة ونساءها يطربون لغناء عبد الرحيم، ويرددون بعد المقاطع وراءه في حماس منقطع النظير، وحانت مني التفاتة إلى الأب توم... كان وجهه شاحبًا مكفهرًا، ويبدو عليه القلق والاضطراب في جلسته، لكنه كان يتمالك أعصابه، ويتظاهر بالسرور والإعجاب... في الحقيقة أن إقدام عبد الرحيم على الاشتراك في الحفل كان نقطه تحول كبيرة فقد بدا لي أن الجميع ينظرون إلينا كأصدقاء كإخوة، وتوارى تمامًا شعور الغربة، وأخذنا نتجاذب معهم أطراف الحديث في ود وصراحة، وتكلمنا عن بعض الصفقات التجارية، وقال أمير القبيلة «سوف تقضون معنا على الأقل عشرة أيام»

فقلت وأنا أنظر إلى الأب «توم»: «قد لا يروق هذا البقاء لبعض الناس»

قال في غضب: «كيف؟؟ أنا هنا الذي آمر وأحكم... هل أساء إليكم أحد؟؟ ...»

قلت بلباقة وأنا أحدق في توم: «الحقيقة أننا نشعر أننا بين أهلينا ...»

– «تلك هي الحقيقة ...»

وفي النهاية قال زعيم القبيلة كلامًا فهمت منه أنه سوف يقدم لنا بعض نساء القبيلة كهدية طوال فترة الضيافة، ولم يكن هذا غريبًا عند بعض قبائل الجنوب والشرق، فما أكثر ما يقدمون النساء لبعض الضيوف الأعزاء وكان هذا منتهى الكرم والرعاية، غير أني قلت: «سيدي الزعيم... نشكرك ونأسف عن تقبل هذه الهدية ...»

نظر الزعيم في دهشة يخالطها غير قليل من الغضب: «لماذا؟؟»

– «نحن مسلمون ...»

– «مسلمون؟؟»

- « نعم »
- « وديننا يحرم هذا اللقاء ، ويعتبره غير شرعي ... لا استمتاع بالنساء إلا في ظل الزواج ... »

ضحك الزعيم وقال : « إذن فحيوانات الغابة أكثر حرية واستمتاعًا منكم ... »

ابتسمت قائلًا : « هم حيوانات يا سيدي الزعيم ... والإنسان غير الحيوان »

وأخذت أشرح له معنى ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ ، ومعنى ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ وآداب الإسلام في العلاقات بين الرجل والمرأة واستطال بنا الحديث ، عن نظرة ديننا إلى الألوان والأجناس ، والدنيا والآخرة ، والأنبياء والرسل والكتب المقدسة ، و « توم » يجلس قبالتنا يكاد يأكله الغيظ ...

وقال الزعيم في ابتسامة بريئة : « الحقيقة أن الأب « توم » كلمني كثيرًا عن أمور كهذه ... »

ثم نظر إلى « الأب توم » قائلًا : « معذرة يا توم فقد كان من الصعب أن يستوعب عقلي كل ما قلته لي عما تسميه بطبيعة المسيح ... »

ثم عاد إلي يقول : « غير أن كلامك يا عثمان ، يبدو لي بسيطًا سهلًا لا يتعب الرأس ، ومن السهل هضمه ... »

ودهشت إذ سمعت الأب « توم » يقول في غضب : « الإسلام دين السوقة ورعاة الإبل والغنم ... إنه يخدع ضعاف العقول ... »

ويبدو أنه لم يدرك أن مثل هذا الكلام قد يسئ إلى الزعيم ، غير أنه كان يقصد شيئًا غير ذلك ، كان يريد الحط من قدري ومن قدر الدين الذي أتحدث عنه قلت في هدوء : « السهولة ليست عيبًا والله يخاطب البشر جميعًا بصرف النظر عن تفاوت قدراتهم العقلية :

البساطة ميزة وليست عيبًا ... لذا آمن العبيد والسادة بمحمد ﷺ وتبعه كبار الشعراء والحكماء ، والقادة والجنود ... لأن كلماته الصادقة استطاعت أن تدخل كل قلب ... »

- «ما معنى كلمة الله؟؟»
- «خالق الكون بمن فيه وما فيه»
- «أليس له ولد؟؟»
- «الكل سواسية ... البشر جميعًا سواء ... أمام الله ... وهو الواحد الأحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد ...»

تململ الزعيم في جلسته وقال: «لماذا يكره النصارى نبيكم؟؟»

- «أما نحن فنؤمن بنبيهم ...»

وقال وقد ازدادت دهشته: «أمرك عجيب ...»

- «يقول القرآن: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله﴾ ...»

تربع الزعيم وأعطاني أذنًا صاغية وقال: «ما الفرق إذن بينكم وبينهم؟؟»

- «القرآن هو الكلمة الأخيرة إلى الناس، ومحمد ﷺ خاتم الرسل، والمسلم لا يكمل إسلامه إلا إذا آمن بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة ...»

تمتم الزعيم قائلًا: «هذا عجيب ...»

هب «توم» واقفًا وقال: «ليس في الإمكان السكوت على هذا الطعن الخفي في ديني، لقد جئتم لتثيروا في الأرض هنا الفساد والفتن والاضطراب، والزعيم لن يخدع بكلماتكم المعسولة ... أنا هنا أنشر العلم، وأعالج المرضى، وأحمل لواء المحبة والتسامح ... أما أنتم فقد جئتم تتاجرون بالكلمات ... تريد سيطرة الشمال النيجري على الإيبو الأحرار ... تريدون استغلالهم ... أنتم أذناب أحمدو بيللو ...»

لم يعلق الزعيم بكلمة ولكني قلت: «أنت تخلط أمورًا كثيرة ... وتحاول أن تثير الغبار لتطمس الحقيقة ... الهوسا والإيبو إخوة ... ونيجيريا دولة واحدة ... والزعيم يعرف جيدًا من هم المستغلون

ومثيرو الفتن ...»

ثم قمت وقلت : «طاب مساؤك يا سيدي الزعيم ...

طاب مساؤك أيها الأب توم ...»

وعدت إلى بيت الضيافة أنا وعبد الرحيم ، كانت رأسي يثقل عليها الصداع ، وشعرت بأنها تكاد تلتهب ، ولامست وجهي نسمات الجو الرطبة ، وهمست : «أعتقد أننا لم نخسر الجولة يا عبد الرحيم ...»

– «إنها مهمة شاقة على أية حال ...»

– «الأب توم كان يوشك أن يصرعني ...»

– «إنه لن يكف عن التدبير ، وأرى أن نرحل بأسرع وقت ممكن ...»

– «أما أنا فتستهويني هذه الصراعات ... أشعر بلذة كبرى ، وأنا أصارع الفساد والضلال ... أشعر أنني اقترب أكثر من الله ...»

❁❁❁

الفصل ٨

كنا نتحرك في أنحاء القرية، ونمتزج بأهلها، ونؤدي شعائرنا الدينية بحرية تامة، لا شك أننا كنا محط الأنظار، فعندما كنا نذهب إلى الغابة لنصطاد أو لنقطف الثمار، كان رجال الإيبو، وبعض النسوة، يحيطون بنا، وكان أطفالهم يحاولون تقليدنا وهم عراة بطريقة بدائية مضحكة، وكانت الأسئلة الكثيرة تتناثر من حولنا، كنت أطلق السهام وأنا أقول لأحد رجال الإيبو: «لبُّ عبادتنا التوحيد»

– «وماذا يعني التوحيد؟؟»

– «ألا نعبد إلا الله ...»

– «وباقي الأشياء التي نعبدها ...»

– «كلها إلى زوال... البشر أيضًا إلى زوال، والله وحده هو الخالق الحي الباقي ...»

ورد رجل الإيبو معلقًا: «إن الأشياء التي نعبدها إنما هي طريق إلى الله... لا نعبدها لذاتها ...»

– «أنتم تخافون مظاهر الطبيعة، ولهذا عبدتموها... والخوف نقيض التوحيد ...»

يقول رجل الإيبو في دهشة: «ماذا تعني؟؟»

– «أعني أنه إذا خفت الحاكم فقد عبدته، أو أديت له ما يمكن أن تؤديه نحو الخالق، وإذا خفت الرعد سجدت له، والسجود لغير الله صغار... الله في ديننا لا يحتاج إلى وسطاء ...»

ويتحمس رجل الإيبو قائلًا، وأنا أطلق السهم: «أتخاطب الله مباشرة؟؟»

– «ولم لا؟؟»

– «لكنني لا أراه ...»

- « هو يراك ... هو قريب منك ... كل شيء فيك منه وإليه ... أنت تحرك يديك وساقيك بإرادته ، نبضات قلبك بين أصابعه ... العبودية له وحده ... عندما تخلص العبودية لله وحده تشعر بالتحرر الكامل ...»

ويهز الإيبو رأسه في دهشة : « أهذا هو التوحيد؟؟ »

- «نعم ...»

- « ومحمد؟؟ هل هو رمز للإله ... أم ابن له؟؟ »

ألقيت بالسهام جانبًا وقلت : «محمد عبد الله ورسوله ... محمد بشر ... اختصه الله بحمل كلماته إلى الناس ...»

- « هو مثلنا إذن ...»

- «نعم بشر ...»

- « أيحب السود؟؟ »

ضحكت في حب وقلت : «كان يقول ما معناه أنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى ...»

- « هل هذا حقيقي ...»

- «كا من صحابته بلال الحبشي ... وصهيب الرومي ... وسلمان الفارسي ... الجميع إخوة ... ميزان التفوق العمل الصالح ...»

- « هذا شيء ما سمعنا به قط ...»

- «وكان يقول عن ابنته ... لو أن فاطمة سرقت لقطع محمد يدها ...»

وأخذت أحدث رفقاء الإيبو عن سلوك المستعمرين أيام الغزو وكيف كانوا يسوقوننا عبيدًا ، ويعاملوننا كحيوانات ، ويهددون إنسانيتنا ، ثم أخذت أحدثهم عن فتوحات محمد وأصحابه ، وكيف تحول الغالب والمغلوب إلى إخوة يجمعهم الإسلام ، فلا سادة يحتقرون المساكين ، ولا استغلال للعاملين ، وكانوا يطربون للقصص التي أرويها عن الغزاة والفاتحين ، وعن الخلفاء الراشدين ، ويقفون صامتين مشدوهين لروعة ما يسمعون ، وكنت أعلم أن كلماتي تنطلق في كل مكان ، ويتناولها الرواة بين الأكواخ ، وعلى سفح الجبل ، وفي

قلب الغابات المظلمة، كما كانت تصل أول بأول إلى زعيم القبيلة ...
أما الأب «توم» فقد انزوى في كنيسته يطيل التراتيل والصلوات، ويزيد عدد المواعظ، وحوله عدد قليل ممن آمنوا به من رجال الإيبو، ولعل هؤلاء الرجال كانوا ينقلون إلى مسامعه كل ما يجرى في القرية ...

وكنت أشعر أن الأمور تمضى على ما يرام، وأن الجو قد تهيأ تمامًا إن لم يكن للإيمان الكامل بدعوتنا، فليكن للرضاء عن سلوكنا والسماح لنا بأن نتكلم كيف شئنا، بل كانت الآذان تتلهف بشدة لكل ما نقول ...

كان قد مضى علينا أسبوع كامل، ونحن ننعم بهذا الجو الروحاني المثالي، وكنا نلتقي خلال هذا الأسبوع بزعيم القبيلة الذكي المتفتح العقل، وقد لاحظ الجميع أن الزعيم أخذ يهمل شعائره الدينية القديمة، بل كان يخجل إذا رأى أحدًا يؤديها وإن لم يتدخل لوقفها، كما لاحظنا أن علاقته بالأب توم لم تعد تلك العلاقة الوثيقة القوية، بل تحولت إلى نوع من المجاملة لرجل قضى بينهم أكثر من عامين، يداويهم ويدرس لهم ...

وفوجئنا ذات مساء بالأب «توم» يأتي لزيارتنا، كان يبدو عليه الضيق والكرب، لكنه كان يحاول أن يتماسك ويظهر بمظهر القوى الواثق بنفسه، والذي لا يبغي سوى السلام والمصالحة وجلس إلى جواري قائلًا: «إن أرض الله واسعة ...»

– «هذا حق ...»

تنحنح وقال: «وهناك مناطق كثيرة أخرى في الشرق والغرب ... تستطيع أن تذهب إليها ...»

قلت في هدوء: «نحن لا نقتسم الأرض، ولا نساوم على البشر ...»

– «ما قصدت ذلك يا صديقي ...»

– «نحن نتحرك بين شعب نيجيريا بمنتهى الحرية ...»

- «يا صديقي قد يسئ هذا إلى مصلحة الناس هنا ...»
- «نحن لا نملك غير الكلمات ...»
- «لكن الناس هنا سذج وبسطاء ... قد تتحول الكلمات لديهم إلى سهام ورصاص ...»

قلت في دهشة : «لماذا؟؟»

- «من أجل إنك تتدخل في شؤنهم ...»
- «ما قصدت ذلك ... نحن نتكلم فمن شاء آمن ومن شاء انصرف عنا لا نعاقب أحدًا ، ولا نعطى مكافأة مادية لأحد ... نحن عابرو سبيل ليس في حوذتنا غير قليل من الطعام ، وقدرة على السير في الطريق ...»

ووجدت عبد الرحيم يقبل نحونا بوجهه الأسمر الطويل ويقول : « أيها الأب ... ألم تفكر يومًا أننا قد نكون على حق؟؟ »

قال في إصرار : «أنا مسيحي وأعرف الحق من وجهة نظري الخاصة ...»

- «قد تكون وجهة نظر الآخرين أصوب أيها الأب توم»

نظر إلى عبد الرحيم في اشمئزاز وقال : «الفارق الحضاري بينى وبينكم يمتد إلى قرون ...»

ثم استطرد في برود : «لقد جئنا هنا لنعلمكم كل شيء ... الصناعة والزراعة والجغرافيا ... والدين ... نحن أساتذة ... تلك هي الحقيقة ...»

تدخلت قائلًا : «من الشرق ظهر المسيح ... وفي الجزيرة العربية ولد محمد ... وفي مصر ولد موسى ... زادكم عندنا ... ومع ذلك فإن البحث عن الحقيقة قضية أخرى لا تتعلق بقوتكم ... هذا ما أفهمه ...»

ودار الحديث شرقًا وغربًا ، واحتدم الجدل ، وأخيرًا نظر الأب توم نظرته الخبيثة التي لا تتفق والمسوح التي يلبسها وقال : «أنتم تلعبون بالنار ...»

- «الأفريقيون يعرفون جيدًا ما يضرهم وما ينفعهم ...»

ضحكة ضحكة ساخرة وقال: «سنرى»

وعندما انصرف عبد الرحيم: «كان الرجل يهددنا ...»

- «إن زعيم القبيلة لو علم بكل ما جرى لطرده على الفور ...»

قال عبد الرحيم معترضًا: «ليس بهذه البساطة ...»

- «كل ما أؤمن به أن الطريق إلى الله محفوف بالمكاره ...»

وتذكرت شيخي «عبد الله» شيخ الطريقة القادرية الذي أومن بكلماته أعمق الإيمان، وتذكرت نصائحه لي، يا إلهي ... ها هي ... «جاماكا» تطل على خيالي بوجهها الأسمر الفاتن، أتراها ستسعد عندما يخبرها «نور» أننا نقوم الآن بواجب الدعوة إلى الله في قبائل الإيبو، أم أنها ستثور وتتعصب لما آمنت به؟؟ كلما تذكرت أنها هنا عاشت، ولعبت في الغابات العذراء، والتقت بالرهبان والراهبات ... أشعر بحنين غريب لهذه الأرض ... جاماكا ليست غريبة عني تمامًا ... تفصلني عنها بعض الأفكار والسلوك ... هذا أمر بسيط ... لكن كيف؟ أليس الفارق بيننا بسيطًا على أية حال ... الأفكار والسلوك حيز ضخم ملئ بالصخور والأشواك والأفاعى ...

لا يصح أن أخدع نفسي ... لكني للأسف أشعر أنني أحبها ... أتذكر كلماتها ... نظراتها في دار السينما ... وزيارتها الغريبة لي في البيت ... الصدف الصغيرة تصنع أحداثًا ضخمة ...

كنا نتجول في الغابة ظهر اليوم التالي، لا شك أن الحر كان شديدًا، ومع ذلك فقد كان من المستحيل أن أتخفف من ثيابي وأمشى عاريًا أو حافيًا كما يفعل الإيبو ... وصرخ عبد الرحيم فجأة وهو ينبطح على الأرض: «خذ حذرك ...»

وبحركة إرادية انبطحت إلى جواره خلف شجرة ضخمة، أخذتني المباغتة، وبعد لحظات رأيت عبد الرحيم يقترب مني وهو يرتجف: «لقد استطاع الوغد أن يصيبك ...»

وامتدت يد عبد الرحيم لتنتزع سهمًا قد أصاب كتفي اليسرى من الخلف ... وعندها شعرت بألم بالغ، لقد خيل إلي عندما صرخ عبد

الرحيم في البداية أن شيئًا ما أصابني في كتفي ، لكني ظننت أن بعض الأشواك قد غرزت في كتفي أثناء انبطاحي ، وما أن فارقتني الدهشة حتى أصبحت مدركًا تمامًا لما أعانيه من آلام ... وقال عبد الرحيم وهو يضمد جرحي بمنديل صغير : «لو أصاب قلبك لقضى نحبك في الحال ...»

ابتسمت برغم الألم ...

وقال عبد الرحيم : «يخيل إلي أنني أعرف الجاني ...»

قلت : «لنسرع الآن ... مخافة أن تكون هناك محاولة أخرى ...»

– «الجبان لا يضرب إلا مرة واحدة ويهرب ... أتتذكر ذلك الرجل الذي أتى إلينا في البداية وطلب منا أن نرحل؟؟»

– «نعم أتذكره ...»

ورآنا الناس عائدين ، وبلغ الخبر مسامع الزعيم ، ووفد إلى دار الضيافة خلق كثير خلف الزعيم الذي بدا غاضبًا محمر العينين ...

وعندما أخبره عبد الرحيم بما رأى ، تدخلت قائلًا : «لا يصح أن نجزم ما دمنا غير متأكدين ...»

في المساء كنا لدى الزعيم ، ورأينا الجاني مقيدًا بالحبال في ركن قرب النار المشتعلة ، لكننا لم نر أثرًا للأب «توم»

وجلسنا صامتين حول الزعيم الذي غمغم بعد فترة : «الخائن يقتل ...»

قلت في ضراعة : «أنا صاحب الحق ، وقد عفوت عنه ... يقول الله في كتابه العزيز ﴿ومن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ »

وقال عبد الرحيم وهو يحني رأسه : «ليس هو الفاعل الحقيقي ... إنه ضحية ... مظلوم ...»

وأجاب الزعيم بكلمات قصار فهمنا منها كل شيء : «يا ضيوفنا الأجلاء ... لابد أن يرحل الأب توم عن ديارنا ...»

لقد جدت أحداث كبيرة لا شك ، إن طرد «توم» ليس بالأمر الهين ، ثم إن قتل الجاني إذا أصر الزعيم على ذلك – سوف يجعل عند أهله

وذويه ذكرى سيئة مشبعة بالدم، وأنا لم آت لهذه الديار، كي أورث الأحقاد، وأخلف ورائي الأحزان، ولن نكسب كثيرًا من موت رجل خدعه الحقد الاستعماري الذي لا يرحم...

واقتربت من الزعيم مرتكزًا على ركبتي وتناولت يديه وضممتها إلى صدري وهتفت في توسل: «بحق آبائك وأجدادك العظام... أن تعفو عنه... وسنرحل على الفور...»

ابتسم الزعيم، ووجدت عبد الرحيم يقدم على خطوة غريبة أثارت في نفسي الاضطراب، لكن جاءت ناجحة للغاية، لقد قبل رأس الزعيم ولامس عقود الخرز حول عنقه في رقة، ثم اتجه وسط الصمت الضارب، وذهب إلى الجاني المقيد وفك وثاقه... وعاد قرب النار، وأخذ يرقص رقصاته الأفريقية ويغني أغنية الإيبو المحببة... وانفرجت أسارير الزعيم... وفاض وجهه بالسعادة والرضى...

وبعد أن انتهت الأغنية... أشار بيده فصمت الجميع كان خلق كثير من القرية قد اجتمع في هذه الساعة الحاسمة ثم وقف الزعيم وقال بصوت أجش: «أيها الأبناء لقد قررت أن أعتنق دين هذين الرجلين...»

وساد السكون، ثم التفت صوبي قائلًا: «قم ولقني الكلمات المقدسة...»

وفي خضم هذا السكون العامر بالدهشة، وقفت ألقنه الشهادتين باللغة العربية... وما أن انتهيت وقد سال جسدي عرقًا غزيرًا حتى صاح الزعيم بالحاضرين: «قفوا... ورددوا الكلمات المقدسة...»

وعندما هدر الحشد بالشهادتين ظننت أنني في حلم، إنه شيء يشبه الأسطورة، وراء ذلك كله سر إلهي لا يمكن كشفه، نفس السر الذي يكمن وراء إسلام الملايين على أيدي التجار في الهند والصين وشواطئ البحار البعيدة والجزر النائية...

وعلمنا في اليوم التالي قبل رحيلنا أن فئة قليلة كانت تنصرت من قبل على يدي «توم» أصرت على البقاء على تنصرها...

وفكر الزعيم في إلزامها بالدين الإسلامي، لكني قلت: «أيها الزعيم المبجل... ﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾ فليسلم من شاء وليبق على دينه من شاء، هذه أوامر ديننا ...»

قال في استغراب: «أهو ذاك ...»

– «نعم ...»

– «أمركم مجاب ...»

واتجهت قافلتنا الصغيرة، السيارة الاندروفر وعبد الرحيم وأنا صوب الشرق ... كانت أحداث الأمس تبدو كمعجزة من المعجزات ...

وقال عبد الرحيم: «على مولانا أحمدو بيللو، أن يعجل بإرسال أحد العلماء ومدرس إلى هنا ... هذا أمر ضروري ...»

قلت في شرود: «قد آتى أنا بنفسي لأعيش في هذه الديار إلى الأبد ...»

سامحني الله، فقد كنت في هذه اللحظات أتخيل «جاماكا» وقد أسلمت وتزوجتني وأتت معي لنرى هؤلاء الشرفاء الفقراء في تلك المنطقة النائية على حافة الغابة العذراء.

❁❁❁

الفصل ٩

كنت أساءل نفسي في الطريق إلى الشرق عن سر ذلك النجاح المذهل أو تلك المعجزة، ولم يكن هناك من تفسير لدى سوى أن النجاح على قدر صدق النية، كانت تحركني طاقة هائلة ... طاقة روحية تحثني دائمًا على العمل، ولعل أكبر فلاسفة المسلمين في هذا العصر لم يكن ليقدر على أن يحقق مثل هذا النجاح، إن الحجة والمنطق وحدهما غير كافيين في هذا المضمار، ومع ذلك فليس لي سوى أن أحمد الله وأسجد له شكرًا، وعبد الرحيم ليس داعية محترفًا، إنه مجرد إنسان مخلص، على قدر بسيط من الثقافة، تعلم ما تعلمه عن الإسلام في حلقات الذكر والاستغفار، وتلقفه من فوق المنابر أو دروس المساجد، ومع ذلك فقد كان يؤدي دوره إلى جواري بتوفيق الله، كان كثيرًا ما يدلي بالرأي الصادق والتعليق الحكيم، أو يأتي عملًا يكون وراءه خير كثير، كلما تذكرت أغنية الإيبو، وأثرها في النفوس، وتقريبها بيننا بين القوم، أضحك في سعادة وأشكر الله لم أتضايق كثيرًا عندما عرجنا على قبيلة صغيرة تبعد عن القبيلة الأولى بخمس ساعات سيرًا بالسيارة في الأحراش، أقول لم أتضايق عندما رفضنا رجالها، وأبى زعيمها أن يستقبلنا، وعلمنا أنه يعيش هو وقبيلته في شبه عزلة تامة، ولا يسمح لأحد بارتياد قريته، بما في ذلك المبشرين والتجار، هناك فئة من الناس يأنسون للعزلة، ويخافون الانفتاح على بقية العالم .... ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وهكذا المقاصد مرة تصيب ومرة تخطئ.

وأنا راض بقضاء الله، صابر لمشيئته ...

وبعد يوم من رحيلنا وكنا قد انحدرنا صوب سفح الجبل إلى مكان

فيه بحيرة كبيرة ، وعليه أجمات من الأشجار ، شديد الرطوبة ، خانق الحرارة ، وأقمنا خيمة صغيرة لنقيم فيها يومًا أو نصف يوم نكتشف الجو ، ونعرف الأرض التي نتحرك عليها ، وصادفنا بعض رجال الإيبو ، لكننا لم نكن قد وضعنا خطة بعد للامتزاج بهم والتحدث إليهم ... الغريب أننا فوجئنا بالأب «توم» ومعه عدد من رجال القبيلة التي كنا قد حققنا فيها نجاحًا باهرًا ، ووقف الأب ورجاله صوبنا في دهشة ، همس عبد الرحيم : «يبدو أن الرجل ينوى عقابنا ...»

– «ليس هذا أسلوبه ... إنه لا يضرب في وضح النهار ...»

اقترب الأب «توم» وعلى وجهه ابتسامة غريبة ، فيها معنى التشفي والانتصار والسعادة ، دق قلبي من الرعب وأنا أدقق النظر في وجهه المقيت ، وقال في سخرية واضحة : «ألم تسمعوا الأخبار؟؟»

. تبادلنا نظرات صامتة أنا وعبد الرحيم ، إن معنا مذياعًا صغيرًا لكننا لم نفكر طوال رحلتنا أن نبحث عنه أو نستفيد منه .

وسمعت توم يقول : «كنت واثقًا أن تصرفات المسلمين في الشمال ستجر الوبال والحسرة ... لست أدرى لماذا لا تدعون كل إقليم من أقاليم نيجيريا يستقل بنفسه؟؟»

«لتكن الهوسا وحدها في الشمال ... والإيبو وحدهم في الشرق ... واليوروبا في الغرب ...»

صرخت في ضيق : «كفى يا مستر توم»

– «أنا الأب توم ...»

– «إنك تسيء إلى أبناء الوطن الواحد ... وتذكر أنك أتيت لتنشر دينك لا لتخطط لتمزيق الدولة إلى دويلات ...»

قهقه كشيطان ورمى بالخبر الذي انقض كالصاعقة : «لقد مات أحمدو بيلو ...»

هتفت أنا وعبد الرحيم في صوت واحد : «ماذا؟؟»

قال في بساطة فظة : «قتله الثوار من الضباط في الشمال هو وزوجته ... وبعد أن قتلوهما أحرقوهما بالنار ...وقتل المئات من

الضباط والرجال المسلمون ...»

دارت بي الأرض، امتلأت عيناى بالدموع، لكأنما أصابني شلل تام، سمعت توم وكان صوته يأتي من بعيد: «قتله الميجور «تشوكوما نزوغو» المدرس بالكلية الحربية ... أما ايرونسى قائد الجيش فقد زعم أنه بريء من الحركة ودعا الضباط المتمردين وعلى رأسهم تشوكوما للاستسلام ... وأعلن ايرونسى قائد الجيش نفسه حاكمًا عسكريًا على البلاد ...

لقد سقط الشمال ... وسقط أحمدو بيللو للأبد ...»

صرخت في جنون: «اذهب أيها الملعون» واندفعت صوبه ... لكنه لم يكن أمامي ... كان قد ذهب بعيدًا وهو يقهقه ... لم أكن أرى أمامي تشوكوما ولا ايرونسي ... كنت أرى الوجه الأشقر والرداء الكهنوتي ... الاستعمار والتبشير ومعهما إسرائيل ... هذا الثالوث الرهيب هو الذى قتل سيدي ومولاي أحمدو بيللو

وصاح توم بأعلى صوته:

- «الثورة يديرها رجال الإيبو ... تذكر جيدًا يا عثمان وبقاؤك هنا معناه الموت ... يجب أن ترحلوا فورًا ...»

واختفى توم، وبقيت أنا وعبد الرحيم ننوء بثقل الأحزان القاتلة، الذكريات الغالية تمر بخاطري، الرجل العظيم أحمدو بيللو وما قدمه لدينه وبلاده من خدمات في سبيل رفع شأنها، ولم شملها، الآمال الحلوة التي كانت تداعب أفكاره بالنسبة للمستقبل، صموده في مواجهة أعداء البلاد ... إصراره على النضال برغم التهديد بالموت ... لقد مات أحمدو بيللو شهيدًا ... كان شيخي يقول إني أرى في وجهه سمات الشهيد ... إنا لله وإنا إليه راجعون ... ها أنت يا وطني الغالي تقع بين براثن الأعداء وتغرق يا وطني في فتن سوداء كالليل الحالك ... الإخوة يقتتلون، فيراق الدم البريء ... من أجل أن ينتعش اقتصاد الاستعمار، ويضمن الاستثمار من أجل أن يركع عمالقة الشمال ساجدين تحت إرادة المستعمر ... الحدث الكبير يهز وجداني،

ويشعل قلبي ، ويلطخ أمالي بالسواد ... لم أعد أستطيع السير ... أنظر من حولي فيخيل إلى الآفاق قد ملئت سهامًا سامة ، وأن الموت يكمن في كل اتجاه ... تشوكوما أيها الميجور الملعون؟؟ كيف سولت لك نفسك أن تفعلها ... قال أحمدو بيللو ذات يوم ، «لن أعزل ايرونسى ... لن أفصله أو أفصل أي ضابط مسيحي أو من الإيبو ... إنهم إخوتنا ... ولا أريد أن يرميني أحد بالتعصب عندما أعزل ايرونسى أو غيره من الإيبو المسيحيين وأضع مكانه قائدًا مسلمًا ... ها هم إخوتنا من الإيبو يتزعمون التمرد ويقتلون إخوانهم من الضباط المسلمين، ويصرعون « أحمدو بيللو » ... أي كارثة حلت ببلادي الحبيبية؟؟؟ ؟

ربت عبد الرحيم على كتفي قائلًا : «لتهدأ قليلًا ...»

– « هل صح ما زعموا؟؟ »

– «لقد سمعت المذياع ... أن ما قاله الأب توم صحيح ...»

– «كيف يحدث ذلك ؟ »

– « ايرونسى يزعم أنه بريء ، وأن المسئولية تقع على تشوكوما والضباط المتمردون الخمسة وكلهم من الإيبو ...»

تنهدت في حسرة وهمست : « لا شك أن مدينتنا الآن تحيا في ظل الرعب والعذاب ...»

– « لابد أن نعود يا عثمان ...»

– «سنرحل على الفور ... فليصبنا ما يصيبهم ... ولنحمل من الآلام ما يحملون ...»

– « أجل »

– «وليست الدعوة يا عبد الرحيم كلمات ونصائح ... إنها تضحيات ... مات أحمدو بيللو بعد أن ضرب أروع لمثل في الصبر والفداء ...»

وانطلقت بنا السيارة عائدين صوب « لاجوس » العاصمة ، كان البؤس الحزين يوشح الغابات والليل وأصوات الحيوانات الملتاعة ... كان يخيل إلى أن اسم أحمدو بيللو في الآفاق كالصدى الخالد الذي لا

يموت، لقد قتلوا الأغنية الشجية على لسان كل رجل وفي نيجيريا الغالية ...

قلت وقد قطعنا ساعات في الغابات:

- «الحق لا يموت ...»

- «الحق باق ...»

- «وأنا أعرف ذلك يا عبد الرحيم لكن عيني تفضيان بالدموع ...»

- «مات عمر بخنجر حاقد، وسال دم الشهيد عثمان على صفحات كتاب الله ... ولقي علي بن أبي طالب ربه بعد أن امتدت إليه يد الغدر ... ما معنى أن يموت هؤلاء الصحابة الأتقياء على هذه الصورة؟؟ يخيل إلي أنها أشرف ميتة على وجه الأرض ... الذين يموتون في ميدان الجهاد لهم عند الله منزلة عالية ...»

ومسحت دموعي وقلت: «هم المنتصرون برغم موتهم ...»

- «والحقد يا عثمان لم يطفىء شعلة اليقين ...»

- «ولن يطمس كلمات الله ...»

«وبلغنا لاجوس بعد رحلة مرهقة في الصباح، يا إلهي ماذا أرى؟؟»

المخدوعون والحمقى من المنتصرين، والحاقدون من رجال الإيبو يرقصون في الشوارع ويترنمون بالأغاني الحماسية ... والصحفيون الأجانب ورجال الجاليات تشرق الفرحة في أعينهم ويصورون المواكب المخدوعة.

- «ماذا أرى يا عثمان»

هززت رأسي في ضيق بالغ وقلت: «الشامتون»

- «ألا يفهمون أبعاد النكبة؟»

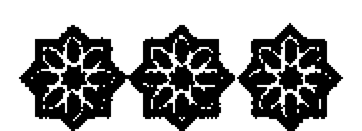
- «الأعداء الأجانب يصورون الخيانة على أنها بطولة، ويبرزون الانهيار على أنه تحرر وتقدم، صرخ عبد الرحيم وقد احتقن وجهه ...».

– « اللعنة على كل شيء ... لو أن بي قوة لكنستهم بمدفع رشاش ...»

– « السكارى لا يدرون ما يفعلون ...»

حينما عدنا إلى فندق مدام « علية » كانت الصالة صاخبة ، ومدام علية جالسة على الطاولة فى اكتئاب وقد أسندت رأسها على قبضتها ، نظرت إلى عيني محمرتين وهمست مخافة أن يراها أحد من الأجانب : « البقية في حياتك ...»

تناولنا المفاتيح دون أن نجيب ... اليهودي الخبيث يجلس في ركنه المعهود وعيناه تلمعان ، إنه ينظر إلي في شك ، وبعض الرواد يتحدثون عن الفتنة التي اندلعت في البلاد وعن آثارها المرتقبة بالنسبة للتجارة والاقتصاد وسعر العملة وما يزخر به من أحداث ومفاجآت ، وبعض الواهمين يقسمون الإيمان المغلظة كذبًا على أنهم كانوا يتوقعون ما حدث ، والبعض الآخر يحاول تحليل الأحداث والبحث عن الأسباب المباشرة ... لم أكن أريد أن أسمع شيئًا ، وذهبت – برفقتي عبد الرحيم – إلى غرفتي كنت أريد أن أجلس بعيدًا عن الضجيج والأضواء ...



الفصل ١٠

وعدت أخيرًا إلى مدينتي التي يوشحها الأسى العميق، ويمطرها الحزن، وتعصف بها موجات الوجوم عدت إلى شمال نيجيريا، حيث الرجال العمالقة يمضون منكسي الرؤوس، كسيرى النظرات، والغيظ المكتوم يطل في المحاجر، كان تشوكوما وضباطه المتمردون قد استسلموا لقائد الجيش «ايرونسى» في حركة مسرحية بارعة، يحاول فيها القائد أن يبرئ نفسه مما جرى وكان معروفًا لدى الجميع أن هذا القائد ضالع في المؤامرة التي أودت بحياة الشهيد أحمدو بيللو وغيره من الشهداء الأطهار أخذتهم ضربة المتعصبين والعملاء على حين غرة...

وهذا هو بيتي جامد لا حياة فيه، الحياة أصبحت مرة المذاق منفرة، والصحاب متفرقون كل يوجس خيفة من الآخرين، وأي تجمع معناه أن تعرض نفسك ومن معك للسجن أو الموت أو الشبهات، البعض فروا إلى أماكن نائية وآخرون أغلقوا متاجرهم، والحمقى من الإيبو يتطاولون في البنيان ويمرحون، وكأن كل شيء قد دان لهم، أصبح السلاح هو سيد الموقف، والأجانب الذين يكمنون وراء هذه المؤامرات يلعبون بمصائر الوطن، ويرسمون الطريق إلى الهاوية والانهيار، لكأنما قد سكنت المدينة أرواح شريرة، وأخذت أسمع عن حكايات كثيرة كلها تصور ألوان البشاعة والانتقام، لكم تخيفني سطور الدم القاني، إن السنين الطويلة لا تمحوها من القلوب، ولا تستطيع صفحات التاريخ أن تغفلها، الدم المراق غدرًا وظلمًا يظل يصرخ دائمًا، وصراخه يورث القلق والأرق، ويحرض على الثأر والتدمير، ولا يكبحه كابح، أو يخرسه توسل، لقد ذاقت البلاد طعم الدماء وتجربة الانقلابات، ودوريات العسكر يجوبون الشوارع، وينتشرون في المدن وفي مسارب الصحراء، والظلم لا ينجب إلا

الكراهية، ولا ينبت إلا الخوف، والخوف رذيلة فظيعة ...

لما دخلت على شيخي في بيته الواسع المتواضع، كان يجلس هو وحفنة من الدراويش يذكرون الله، ألقيت السلام، ثم اقتربت منه ولثمت يده الكريمة النظيفة الباردة، وخيل إلى أن أهدابه تبللها الدموع، وبعد فترة قال الشيخ: «من قال أن الطوفان أعمى؟؟ للطوفان عيون يلتقط بها ما يشاء ليدمره أو يغرقه ... وما انطلق الطوفان إلا بإرادة الله ... وإذا بدا الطوفان قاسيًا ظالمًا عشوائيًا، فتذكروا حكمة الله الكامنة خلف الأشياء ... وإذا هلك الشيطان يا أبنائي فلن يكون هناك صراع ... ليس القاهر هو الطوفان، ولكن القاهر هو الله ... اذكروا ذلك جيدًا ... لا تقولوا انتهى أمر أحمدو بيللو ... ولكن قولوا أراد الله لقاءه ... فلبى الشهيد النداء ... نحن لا نسمع هتافه وهو سائر في الطريق إليه ... لكنه لا شك كان يقول: مرحى ... مرحى ... هذا يوم اللقاء العظيم ...»

واغرورقت الأعين بالدموع ثم انسكبت حتى بللت اللحى، وشهق البعض باكيًا ... وصاح شيخنا نافرًا: «لا تنتحبوا ... بل رددوا معي، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين رددوها ألف مرة ...» وما أن انتهينا من الورد المطلوب، قلت لشيخي: «وماذا نفعل؟؟»

قال: «سل قلبك»

قلت: «في القلب ترتجف أمنيات كثيرة ولا تعرف كيف تنبثق»

– «قل كلمة الحق ...»

– «إنهم يقيمون في طريقها السدود يا شيخي الجليل ...»

– «قلها ولا تخف ...»

– «الموت والسجن يترصدان لنا»

– «هذا هو الجهاد ... بعضنا سوف يفلسف ضعفه، ويتقاعس بحجة أن الظروف لا تسمح، والكفاح قد يكون حماقة ... لا تصدقوا هذه الكلمات، لأنها الموت بعينه ... الحق لا ينتصر إلا بالمجاهدة المستمرة ... لقد تعلمنا أن الموت ليس خاتمة المطاف ...

الموت مرحلة إلى الدار الثانية ... وهي أروع ... فكيف نحجم عن النعيم المقيم؟؟

هل تذكرون ؟؟ إن عصا واحدة قهرت جيشًا يعد بالآلاف ... تلك عصا موسى وجيش فرعون الجرار ... والشهداء هم النخبة الممتازة التي يختارها الله ... سأراكم غدًا تسيرون في الطرقات ... وتعلنون ... كلمة الحق جماعات وفرادى ... ولا ترهبوا الحديد والنار ... عزيمة المؤمن أقوى من الحديد ، وأقوى من النار ... انطلقوا يغفر الله لكم ...»

وبحثت عن صديقي «نور» في كل الأنحاء ، لكني فشلت في العثور عليه ، المتطلعون لا مكان لهم ، لا يرتبطون بموعد أو بمكان ، إنهم حيث تتوفر لقمة العيش ، وحيث يوجد المأوى ، وبرغم صرامة الحكم العسكري ، وقسوة ايرونسى وتعصبه إلا أننى كنت أتكلم وأقول ما أشاء ، ومما يؤسف له أن بعض الإخوة من الإيبو كانوا يمشون في خيلاء وكأنهم طبقة النبلاء المتميزة ...

وكان لابد أن تتحول كلماتنا واحتجاجاتنا إلى حركة منظمة لتقتلع الانحراف ، وتعود الحياة الطبيعية إلى وطني العظيم ، إن ساحل العبيد القديم لا يمكن أن تعود إليه العبودية مرة أخرى ، ولا يمكن أن يفرض عليه الرضوخ والاستسلام ...

وفوجئت ذات مساء بمجيء «نور» ... هو هو لم يتغير إلا قليلًا ألمني أشد الألم أنه لا يكترث بالأحداث الضخمة التي تهز البلاد هزًا عنيفًا ، وكان يقول : «أنا لا أفكر إلا في العثور على المال ... أعني الحصول على وظيفة في أي مجال ...»

- «حيثما يوجد العدل توجد فرصة العمل ...»

هز رأسه في سخرية وقال : «لا أظن أن في الدنيا عدلًا ... ولن يكون»

- «أنت يا نور تستمد أحكامك القاسية من خلال أزمتك الخاصة ...»

- «ليكن ... فأنا كل شيء ... ماذا يهمني لو حظي العالم كله بالسعادة وبقيت تعسًا وحدي ...كلنا أنانيون ...»

قلت في شيء من الاستياء : «إن موت الزعيم قد أجهض التقدم الذي كنا ننشده ...»

علق دون اكتراث : «إنه يستحق ...»

ذهلت لهاتين الكلمتين وصرخت في حدة : «ماذا تقول يا نور؟؟ هل جننت؟؟ »

قال متلعثمًا : «لا تغضب ... كان طيبًا أكثر من اللازم ... لو كان رجل سياسة حقًا لعلم أننا نعيش في عالم كله ذئاب ...»

أردفت في أسى : «كان رحمه الله أبًا كبير القلب ... أفسح قلبه لكل أبناء نيجيريا ... اعتبرهم أسرة واحدة في كيان واحد ... وكان يعلم جيدًا أن أبناء الأسرة الواحدة فيهم السوى والشاذ، والصالح والطالح ... لكنه كان أبًا بكل معنى الكلمة ...»

وتشعب بنا الحديث هنا وهناك، وكان نور يحاول دائمًا أن يفلت كلما تحدثنا عن السياسة وأوضاع البلاد، وأخيرًا همس في أذني : «يا صديقي ... دع الأمور تمضي ... وفكر في نفسك ...»

- «أنا لا أخاف إلا الله يا نور ...»

هتف في حدة : «أيها الأحمق، إذا سقطت فستدوسك النعال ولن يبكي عليك أحد ... لقد مزقوا أحمد بيللو وزوجته إربًا إربًا وأحرقوهما بالنار ... وها هو تشوكوما يعيش دون أن يمسه أحد ... الكبار هنا كالدمى التي تحرك خيوطها أيد خفية فوق مسرح للعرائس ... أفق إلى نفسك ...»

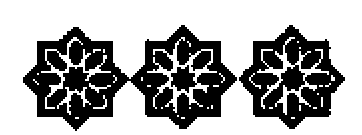
موجة من اليأس تجتاح الناس في كل مكان، هذا ما يبدو للناظر، لكن الحقيقة غير ذلك، إن عنف الضربة يوحي دائمًا بالانتظار والترقب، لكن اليأس لن يكون ... هذا ما أعتقده ...

وذات مساء همس «نور» في أذني : «إنها تبعث إليك بتحياتها ...»

- « من؟؟ »
ضحك ملء شدقيه وقال : « الامبراطورة ...»
أدركت أنه يعني « جاماكا » ، وذكر جاماكا هذه المرأة يثير في نفسي الآلام ، أليست من الإيبو؟؟ وبنو قومها وقعوا فريسة في يد المخطط الاستعماري الصهيوني ليعبثوا بأمن البلاد وحرمتها ...
- « لا تذكر اسمها أمامي »
هز كتفيه في سخرية وقال : « وما ذنبها؟؟ »
- « أنا لا تربطني بها أدنى رابطة »
ابتسم وهو يرمقني بنظرات ذات معنى وقال : « تصور إنها تعانى من الألم من أجلك ... فهي تعلم أن ما حدث سوف يكون سيء الأثر عليك ... هي تصلي من أجلك ...»
قلت : - « لا شك أن لها نفوذًا كبيرًا الآن »
- « وأي نفوذ يا صديقي ... لقد صافحها ايرونسى بنفسه يوم زيارته للمستشفى حينما كان يجامل الجرحى ...»
وهتفت في غيظ : « كنت أعتقد دائمًا أن طراز حياتها لن يجعل منها أنثى طيبة محترمة ...»
- « الغريب أنها تذوب شوقًا لرؤياك لولا أنك أسأت إليها »
لوحت بيدي في غضب : « لا أريد أن أراها ...»
- « تستطيع أن تحل لك كثيرًا من المعضلات ...»
- « أعوذ بالله ... أنا لا أعتمد إلا على الله ...»
وأخبرني أحد معارفي في اليوم التالي أن الشبهات تحول حول صديقي « نور » وأن هناك شكًا بأنه يتعاون مع السلطات الجديدة ويشي بالشرفاء من أبناء المدينة ، كان لهذا الخبر وقع الصاعقة علي نفسي ، إن نور مهما انحرف وعبث فلن يسقط في هذا الشرك القذر ، وفكرت في الأمر مليًا ، ووصلت في النهاية إلى أن مثل هذه الظروف القاتمة تصنع الشكوك ، وتثير الريب ، وتوقع الكثير من الناس في البلبلة وتقضى على الثقة بين الأحياء ، وإلا فكيف يكون الصديق فخًا

للصديق؟؟ هو فقير ... وثائر على الأوضاع ... ومتعطل تعصف به أعاصير الضيق والتمرد ، لكنه لا يمكن أن يبيع نفسه في هذه السوق الشائنة ... وقررت أن أناقشه الأمر في أقرب فرصة ... غير أن هذه الفرصة لم تتح لي ، فقد سمعت في المساء طارقًا يدق بابي ، وما أن فتحت الباب حتى وجدت شرذمة من العسكر يرأسهم ضابط من الإيبو ، وما أن رأوني حتى أمسكوا بي ووضعوا الأغلال في يدي ، وانتشر بعضهم في أنحاء البيت يجوسون ويجمعون الأوراق، ويقلبون الفراش ، ويفتحون الخزائن بحثًا عن السلاح ...

كانت هذه أول مرة أنزل فيها ضيفًا على أحد السجون ...



الفصل ١١

لم يراودني أدنى ندم أو خوف بالنسبة لما كنت أؤمن ، ودخلت السجن شامخ الرأس لا أكترث لما قد أتعرض له من آلام ، الشيء الوحيد الذي ضايقني هو أنني لم أستطع أن أقول بدور فعال إزاء المحنة ، فقد كان الوقت ضيقًا ، وكان الناس يعانون من الارتباك وآثار المباغتة المحزنة ، وكان السجن يغص بعدد كبير من الرجال أغلبهم من الضباط والعسكر وعلماء الدين وكتاب الصحف والمؤلفين ... يبدو أن أية محنة يكون وقودها دائمًا من صنفين رئيسيين هما الشباب وحملة الأقلام ، الشباب بصفائهم وحماسهم ونقائهم العقائدي ، والكتاب بما يحررون من آراء ، وبما يجنحون إليه من نقد ومعارضة ، ولا يكاد الكاتب يفلت من قبضة الطغيان إلا إذا باع نفسه للسلطان ، وجعل من فكره وأدبه عبيدًا مسخرين له وشعرت بقدر غير قليل من السعادة وأنا وسط هذه المجموعة من الرجال الذين رفضوا الانحراف ، وأعلنوا رفضهم في قوة ، أنا لا أنكر أن فيهم الكثيرين من ذوي الاتجاهات والمذاهب المتباينة ، ولكنهم جميعًا يلتقون تحت هدف واحد ، ألا وهو النهوض ببلادهم في ظل الحرية والوحدة والعدالة ، قد تختلف صورة العدالة ، وقد يضع بعضهم للحرية مواصفات خاصة ، لكنهم لا يقصدون سوى الخير لوطنهم ، أمر آخر وهو أن غالبية الموجودين ممن يؤمنون بزعامة الشهيد أحمدو بيللو وصدق نواياه ، وإخلاص قصده ، ولذا كان السجن مجالًا لدراسات مستفيضة عن أوضاع الوطن السياسية والاقتصادية ، وعن الأعداء الذين يتربصون به الدوائر ، وعن تصور الوضع الذي سيكون عليه المستقبل ... لكن الدماء التي أريقت في

شوارع المدن والقرى في نيجيريا، وخاصة ضد المنتمين لقبائل «الهوسا» خاصة المسلمين عامة – وهم الأغلبية الساحقة في دولتنا الاتحادية – تلك الدماء كانت تملأ قلوب الكثيرين بالغيظ والضيق، وخاصة بين الضباط والعساكر المحبوسين ... ووجدت أثناء سجني فرصة طيبة لمزيد من القراءة والعبادة، غير أن رجلًا مثلي تعود الأسفار والتجارة بين شتى أنحاء البلاد لا شك أنه كان ينتابني من وقت لآخر ضيق بتواجدي في هذا الحيز الضيق ... وكان يسمح لبعضنا أحيانًا بالزيارة، ولم يكن يهمنا في مثل هذه الزيارات سوى جمع الأخبار، وخاصة السياسية منها، وعقب أية زيارة لأخ من الإخوة المحبوسين، كنا نحيط به ونتجمهر حوله ونسأله عن المزيد من الأنباء، ونجلس لنحلل هذه الأنباء ونضيف عليها ما يشاء خيالنا المتوثب الطامح، ويخيل إلي في كثير من الأحيان أن البلاد على وشك أن تندلع فيها ثورة مباغتة تقضي على المجرمين، ولكن الأيام تمر، والصبر يطول، ونحن خلف الأسوار نتململ ...

وابتدأت الانتفاضات في الخارج على هيئة تجمعات صغيرة كانت الحكومة العسكرية تضربها بشدة، وأخذ ذلك ينعكس علينا داخل السجن، إذ بدأ المسئولون يسيئون معاملتنا، بل ويتعرضون لنا بالضرب والسخرية والقسوة ... وللأسف كان يشرف على اضطهادنا ضابط من الإيبو ليس في قلبه رحمة ... وكان التمرد داخل السجن يعني مخاطرة كبرى قد تقضي علينا جميعًا في مثل هذه الأيام الحرجة، أقول ذلك لأن بعض السجناء فكروا في الاصطدام مع الحراس، وإثارة معركة، لكن العقلاء من الرجال رفضوا هذه الفكرة بشدة وبينوا أخطارها الماحقة ...

وآلمني جدًا أن بعض المواطنين في الخارج كانوا يتعاونون مع سلطات الأمن الظالمة، وذكرت أسماء كثيرة منها «نور» وكان المتحمسون منا يقسمون أغلظ الإيمان على الانتقام منهم عندما تتاح

الفرصة ويفرج عنهم، ويتركون هذا السجن الذي أصبح مسرحًا للتعذيب والاضطهاد ...

وكنت أتذكر صداقتي «لنور» وأحاول أن أتعمق تصرفاته وسلوكه وخاصة في الأيام الأخيرة قبيل سجني، بل أكد لي بعضهم أنه هو الذي قد وشى بي ... الله وحده يعلم ما أصابني من غم وحزن، لم أكن مكتئبًا لأنه تسبب في سجني، بل لأنه قد انحرف هذا الانحراف الخطير، ووقع في تلك الخيانة المرذولة ...

لكن ما أعجب الأيام!!

فوجئت ذات يوم بنور في السجن ... يا إلهي!! ماذا جرى ؟؟

كانت الكدمات تملأ جسمه، والدماء تنزف من أنفه، وآثار السياط تبعث في نفسى الأسى ...

ما أظلم الناس حينما لا يتحرون الحقيقة!!

ضممته إلى صدري في حنان وكأني أعتذر له في صمت بليغ، تلاقت نظراتنا في عتاب، هل هناك شيء يمكن أن يقال ؟ وطأطأت رأسي في خجل، وتمتمت: «لقد قسوا عليك ...»

قال دون اكتراث: «ليكن ... إنني أتعذب طول حياتي ...»

- «سيعوضك الله خيرًا كثيرًا ...»

ورأيته يهز كتفيه في اشمئزاز وقال: «أنا لا أتكلم عن الله، ولكن يشغلني الظلم الماحق الذي يذل البشر، ويمرغ أنوفهم في الأوحال ...»

لم تصادف كلماته رضى لدي، فقلت: «الإيمان بالله أولًا ...»

- «لم نكفر به، ولكن القضية الآن بيننا وبين الطغاة ...»

- «بإرادته يتم كل شيء يا نور»

- «أتراه سبحانه يحمل السلاح عنا؟؟»

- «جل شأنه ... يوم «بدر الكبرى أرسل جنودًا لم يرها أحد ...»

- «أتقرننا يا عثمان بالصفوة الممتازة من صحابة الرسول ...»

كان واضحًا أنه يعاني من أزمة نفسية لعلها بسبب ما عانى من

تعذيب ، وما تعرض له في حياته من إجحاف وإهمال ، ومع ذلك فإني أؤمن دائمًا أن عزاءنا الوحيد هو الله ، الله هو الذي ينصرنا في حربنا في سلمنا ، في السجون وخارج السجون ، إنه سبحانه يهيئ الأسباب ، ولابد أن يصدق وعده مع المؤمنين الصادقين .

قلت في شرود : «ومع ذلك يا نور ، فيمكن أن نلتقي على معنى مشترك ، فالله ينصرنا إن نحن أخذنا بأسباب النصر من استعداد ويقظة وصبر وكفاح واستعداد تام للتضحية في سبيله ...»

هز رأسه موافقًا ثم قال : « هل معك سيجارة ؟ »

– «تعرف أنني لا أدخنها ...»

– « رأيت أحد المسجونين يدخن عندما دخلت ...»

– « لا تجعلني أساعدك في أمر أراه محرمًا ...»

ودار بنظراته الحزينة الحائرة في أنحاء المكان ثم قال : «في السجن على الأقل لن أفكر في طريقة للحصول على الطعام ...»

واستدركت قائلاً : «لم تخبرنا لماذا ساقوك إلى السجن ...»

– «نفس السبب الذي من أجله أتوا بك إلى هنا »

كنت أريد المزيد ، غير أني أحجمت عن طرح مزيد من الأسئلة في هذا الشأن لأنه كان عازفًا عن الخوض فيه ... ونظر إلي طويلاً ثم قال : « ألم يأت أحد لزيارتك ...»

– « أبدًا ...»

وشرد لحظات ثم عاد يقول : « هل نبقي هكذا طول العمر ...»

– « الأيام تدور ، ولا شك أن الأمور تتغير ...»

ضحك في سخرية وقال :

– « وكيف تتغير؟؟ أتظنها تفعل ذلك تلقائيًا ؟ إن من يرفع رأسه تخمدها ضربة مجنونة ، أو تدفع إلى غيابات السجون ...»

– « إن الملايين التي تربو على الخمسين لن تستسلم لهذا الحيف »

وقال وقد احتقن وجهه : « الفقراء الجائعون لا يصنعون نصرًا ... أنت واهم »

قلت في حدة: «إذن فأنت لا تعرف حقيقة شعبنا ...»

وعاد يهز رأسه ويقول: «أعرفه جيدًا ... اسمه بالأمس ساحل العبيد ... وأذاقه الاستعمار ألوان العسف لمئات السنين ... وعندما نال استقلاله ... أخذ ينتحر ويقتتل ويبدد شمله ... أعرف شعبي لأني أعرف نفسي ... أنا مجرد ضائع ... حزين ... بلا عمل ... تشوي السياط جسدي كما كانت تشوى أجساد أجدادي الذين كانوا يشحنون كالحيوانات في السفن إلى الدنيا الجديدة ... هذا أنا وهذا هو شعبي ...» أزعجتني كلمات نور اليائسة، كنت أظنه قد جاء إلى السجن إنسانًا جديدًا، صهرته الأحداث، ومحصته التجربة المريرة، وأراد أن يشارك بدور فعال في صنع المستقبل لأمته، وها أنا أراه محطمًا تافهًا لا يصلح لشيء ...

قلت وقد تغيرت نبرات صوتي، وبدا الغضب على وجهي: «ماذا بك يا نور؟؟»

وأدرك ما أعانيه من قلق وضيق بسببه، وفهم أنني لا أقر أسلوبه في الجدل، ولا أحترم أفكاره التي تنحو منحى التشاؤم والاستسلام، فابتسم وقال: «هل غضبت؟؟»

– «ليس هذا أسلوب رجل محترم يفكر في خلاص وطنه ...»

وابتلعت ريقي ثم استطردت: «أعرف أن في بلادنا كثيرًا من الظلم والقصور، لكننا شعب أصيل يملك الإيمان بالله، ولديه الإمكانيات الضخمة التي يطمع فيها الجميع، ومن ثم فإن الله لن يضيعنا ...»

نظر إلي بعينيين متعبتين متوسلتين وقال: «لم أنم منذ ليلتين ... لعنة الله عليهم ... ولقد عدت إلى الخمر التي لا أجدها الآن ...

حتى الحصول على السيجارة أصبح مشكلة ...»

ثم تنهد في حسرة وقال: «لقد كرهت الناس جميعًا ... تصور إنهم يتهمونني بالخيانة ... ما فائدة أن أناضل مع فئة تشك في إخلاصي وتطعني في أعز ما أملك ... الناس ينسون يا عثمان ... إن العدو يحاول أن يفتت وحدتهم، ويمزقهم إربًا إربًا، حتى يحطمهم من

الداخل ... وحتى ينتصر عليهم دون أن يشهر السلاح ... لهذا اندفعت كمجنون وأخذت أسب والعن ايرونسى وتشوكوما والجيش والحكام الجدد ... كنت كالمجنون تمامًا ... لم أفعل ذلك عن دافع وطني ... ولكن لأثبت للناس أنني أستطيع أن أضحى ... وأن كلام الناس سخف وانحطاط ...»

واستطاع نور بمرور الوقت، وبما أغدقته عليه من رعاية ومساعدة أن يقترب من الهدوء النفسي، والرضى القلبي، ونسى الخمر والتدخين، وكنت أراه يتوضأ ويقف إلى جواري في الصلاة ... وفي أثناء حملات التعذيب التي كنا نتعرض لها، كان يتلقى الإساءة من العسكر بغير قليل من الصبر والإيمان، فتغيرت الفكرة عنه كثيرًا، واستعاد الناس ثقتهم به كما استعاد ثقته بهم، وأخذ يشاركنا في الفكر والدراسة والنظر في أمر المستقبل ...

وقال «نور» ذات يوم: «ألا ترى أن الجلادين لا يعذبونك بالقدر الكافي؟؟»

قلت في دهشة: «لا أفهم ما ترمى إليه»

- «كان المتوقع أن يصلبوك أو يزيدوا في مضايقتك ...»

- «لم أفكر في شيء كهذا يا نور، إنهم يضربون ضربات عشوائية ...»

نظر إلي طويلًا بطريقة جعلتني أرتبك، ما معنى ذلك؟؟ هل يقصد «نور» أنني أحد عملائهم؟؟ وأخذت أضحك في بلاهة، إذ أن توارد مثل هذ الخاطر على ذهني يجعلني أبدو وكأني قد قبض علي متلبسًا بالجريمة، مع إنني بريء تمامًا من أي ظن سيء ...

- «عثمان أمينوا ... زيارة خاصة ...»

وعجبت لهذا الأمر أيما عجب، فليس لي أم ولا أب ولا أخ، ولا أظن أن لي أقارب لهم سطوة في ظل الحكم العسكري الجديد كي يتوسطوا لي في زيارة خاصة لا ينالها إلا ذوو الشأن ... وكرر السجان اسمي مرة ثانية، فتأكد لي صدق الخبر ...

وأعددت نفسي للذهاب إلى المكان المخصص للزائرين، لابد أن أغسل وجهي جيدًا، وارتدى، «الدامر» المزركش والطاقية الجميلة، على الأقل يجب أن أبدو صامدًا قوي الإيمان، وأن أخفى ما بجسدي من آثار الضربات، وقال لي السجان وهو يرافقني إلى مكان الزيارة: «حذار أن تتكلم عن سوء المعاملة هنا ... أنت تعلم عقوبة من يخالف الأوامر ... مفهوم؟؟»

– «مفهوم ...»

وتذكرت أن «نور» عند سماعه لنبأ الزيارة كان يضحك في سعادة من كل قلبه ...



الفصل ١٢

لا شك كنت متعجبًا لمثل هذه الزيارة ، لكني بعد فترة من التفكير أمكنني أن أخمن من القادم ، إن الشيخ عبد الله لا يترك أبناءه الدراويش هكذا دون أن يسأل عنهم ، من عادته أن يسأل عنا أو يرسل إلينا من يطمئن على أحوالنا ، ثم إنه يرعى أسرنا في غيبتنا ، هذا هو شأن الإخوان في الله ، ثم إن بقايا حزب مؤتمر الشمال يحاولون التجمع بعد الضربة القاصمة ، ويبحثون عن شبابهم وزعمائهم المطاردين ، وزائري لن يخرج عن واحد من هذه الجهة أو تلك ... وأبى السجان العنيد أن يخبرني من الزائر وإن كان هذا مخالفًا لنظم والقوانين ، وكيف ألجأ إلى القوانين في وقت عصيب كهذا ...

حينما دخلت غرفة الزيارة ، ما كنت أتخيل قط أن تكون زائرتي «جاماكا» ... آه ... شعرت بارتباك وخجل كبيرين العيون السوداء التي أرقت ليلي طويلًا ، ولم ترحم نهاري بأحلام اليقظة ... كانت فتنتها أضعاف ما كنت أعرف ... ونظرت إليها مشدوهًا ، وجمدت لدى الباب ... وفتحت ذراعيها واقتربت مني ، لكن يدي امتدت إلى ذراعيها وأمسكت بهما فلم تتمكن من العناق ...

قلت في جفاء مصطنع : «إنني أصبحت أمقت كل الإيبو»

ابتسمت ونظراتها تعبر عن الاحتجاج ، وقالت : «أردت أن أثبت لك أن كثيرين من الإيبو عكس ما تصورت»

وحانت مني التفاتة إلى ضابط السجن القصير المكفهر الوجه ، فعلق على الفور قائلًا في غيظ : «أنت سليط اللسان لا تعرف للياقة معنى»

صحت في غضب: «أنا أرفض هذه الزيارة ...»

هب من فوق كرسيه قائلاً: «اذهب على الجحيم ...»

تمنيت أن أهوى على رأسه بكلتا يدي، لكني استطعت أن أتصور ما سوف يعقب ذلك، سوف ينتقمون مني بطريقة مهينة أمام جاماكا، وسوف تتعقد الأمور أكثر، والسجين في أغلب الأحيان عاجز عن أن ينتقم لكبريائه رهن الأسوار العالية... واستدرت في حركة عنيفة مزمعًا الخروج، لكن «جاماكا» أمسكت بيدي في تشبث، وعاد الضابط يصيح: «دعيه يعد إلى زنزانته ...»

قالت «جاماكا» وهي ترمقه في امتعاض: «إن معي تصريحًا بالزيارة من «ايرونسى» نفسه، ولابد أن تتم الزيارة... ولعلي لا أبالغ إذا أصررت أن أكون معه وحدي ...»

وبدا الموقف مثيرًا يقترب من أزمة حادة، وعادت «جاماكا» تقول: «أعتقد أن مخالفة أوامر القائد تعني خطورة بالغة ...»

وانتفض ضابط الإيبو، وجمع بعض الأوراق وهرول تاركًا الغرفة والغضب يرعش جسده كله، وابتسمت «جاماكا» وقادتني إلى مقعد صغير، وجلست إلى جواري ...

– «كنت قلقلة عليك ...»

– «ليس هناك ما يدعو إلى ذلك»

– «عندما تحتدم الفتن لا يفرقون بين صغير وكبير ...»

– «الأمر بالنسبة لي مجرد ضريبة أؤديها لله والوطن ...»

تنهدت في شيء من الارتياح وهي تقول: «لم تحدثني عن رحلتك إلى الإيبو»

– «نحن الآن في السجن ...»

– «لكني كنت أنتظر أخبارك ...»

وشردت وأنا أحملق في سقف الغرفة الصغيرة : «كانت رحلة رائعة عبر القرى والغابات ... ودعونا إلى ... وأسلم على يدينا خلق كثير ... هل يضايقك ذلك؟؟ »

قالت في دهشة : « أبدًا ... أبدًا ... يسعدني ذلك ...»

والتفت إليها فجأة وقلت : «لماذا جئت؟؟ »

– « ألسنا أصدقاء؟؟ »

– «من قال ذلك؟؟ »

– «قلبي ....»

وشعرت بدقات قلبي تلهث وتتسابق في روعة ، دارت عيناي في حيرة ، وما زلت أتطلع إلى السقف العالي ، وهمست : «لماذا لا تنظر إلي ؟ »

– «لي النظرة الأولى كما أفهم من ديني ، وما عداها وزر ...»

– «الوزر حسبما أعتقد في النظرات الآثمة المتشهية ...»

كدت ابتسم للباقتها وذكائها ، لكني هربت قائلًا : إن زيارتك تثير تساؤلات كثيرة .

– «لماذا يا عثمان ؟ »

– « هل نسيت ما فعله الإيبو؟؟ »

– «لقد جئت أزف إليك بشرى غالية ...»

وهنا التفت إليها قائلًا : «ما هي؟؟ »

– «سيحدثك عنها شيخك عبد الله »

– « لا أفهم شيئًا ...»

– «لقد اعتنقت الإسلام ...»

وقفت وصحت في دهشة : «غير معقول ...»

- «لقد درست ... وسمعت ... وسألت ... ووجدت إجابات شافية لكل ما أريد ... ولهذا آمنت ... كنت أنت السبب ...»

قلت في حزن : «هل آمنت من أجلي ...»

- «كنت أنت السبب ... وعرفت عن طريقك أن هناك نقصًا في عقيدتي ... لا تكتمل العقيدة إلا بالمقارنة ... وقارنت بين عقيدتي الوثنية الأولى ... ثم المسيحية ... ثم الإسلام ... وهكذا أسلمت ... لا لأتزوجك ... ولكن لأن الإسلام حق ...»

وتذكرت الكلمات الخالدة ، (لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها ...) » ، وفاض قلبي بسعادة غامرة ، وفي لحظات نسيت المآسي التي دبرها الإيبو بتحريض من الاستعماريين والمبشرين ودعاة الانفصال ... وغمغمت : «هذا شيء يثلج الصدر حقًا ...»

وغشيتها موجة من الانفعال ، وتبللت عيونها الجميلة بالدموع وقالت : «لقد بكيت كثيرًا من أجل أحمدو بيللو»

وسادت فترة صمت أردفتها هي بقولها : «وعندما أسلمت طردوني من المستشفى الذي كنت أعمل به ... خرجت هائمة على وجهي ... بحثت عنك قالوا في السجن ... أصبحت بين الإيبو الذين يعيشون في الشمال كالمنبوذة ... لقد ظن المتنصرون أن بأيديهم مفاتيح الرزق ... وقال لي الشيخ عبد الله عندما ذهبت إليه «لا تحزني يا ابنتي ... فالرزق مكفول ... بشراك أن وضعت قدمك على أول الطريق الصحيح ... وقدم لي كل عون»

تمنيت في هذا الوقت أن أعقد قراني عليها ، وأن أضمها إلى

صدري وأغرق عينيها الجميلتين ووجهها المشرق الحي بالقبلات، لكن القيود القديمة التي لا ترى شلت حركتي، وبقيت أضحك وأثرثر كالأبله، كان قلبي يضيق بالفرحة، ولم أكن أستطيع أن أعبر بطريقة سوية عما يجيش في صدري من أفراح ...

وسمعتها تقول: «كنت أفكر في طريقة أخرجك بها من السجن، ولذا ذهبت إلى ايرونسي القائد بواسطة أحد معارفي القدماء ولم يكن يعرف أني أسلمت، واستطعت أن آخذ موافقة بالزيارة... ولأكثر من ذلك أنه وافق على الإفراج عنك إذا ما وقعت على هذه الوثيقة ....»

وأخرجت «جاماكا» من حقيبتها الصغيرة ورقة، ونشرتها أمامي كانت السطور عبارة عن تعهد بأن أؤيد الثورة الجديدة، وأتبرأ من كل ماض سياسي، وأن أسير في ركاب الحكم الجديد ...

زاغت نظراتي، ثم أمسكت بالورقة ومزقتها إربًا إربًا وأنا أقول في عصبية: «تريدين أن أبيع نفسي للشيطان ....»

- «بل أريدك لي ....»

- «وكيف تقبلين رجلًا تخلى عن مبدئه وشرفه ....»

- «أريدك أن تبتعد عن السياسة... ونعيش نعبد الله في حب ....»

وابتسمت والعرق البارد يتقاطر على جبيني: «ليست العبادة صومًا وصلاة وذكرًا فحسب... ولكن المساهمة في تخليص المظلومين عبادة... والانتصار لكلمات الله عبادة... ونشر العدل والحرية عبادة... إن شيخي لم يجد الوقت الكافي ليشرح لك كل ما يجب أن تعرفيه عن الإسلام ..»

قالت وهي تخفض رأسها في حسرة: «كنت آمل أن تخرج أنت وتكمل لي الحديث عن الله ....»

ودخل ضابط الإيبو وقال: «لا ... غير معقول ... لقد طالت الزيارة أكثر مما يجب ...»

هبت واقفة والدموع في عينيها، كنت أعرف أن لديها تساؤلات كثيرة، لكن الظروف والوقت لا يسمحان، قالت وهي تتجه صوب الباب وتنظر إلي في أسى بليغ: «ماذا قلت يا عثمان ؟»

وابتسمت هذه المرة ابتسامة حقيقية تعبر عن كل ما يجيش بقلبي، وأدركت على التو معنى سؤالها، فقلت: «أجل ... سنتزوج عندما يفك الله أساري ...»

ورأيتها تضحك والدموع في عينيها، وكادت تتعثر وتتكفئ لدى عتبة الباب، لكنني أمسكت بها في آخر لحظة، فلم تصب بسوء، وبقيت أنظر إليها وهي تبتعد ... لقد امتلأ قلبي بحبها ... وأخيرًا عدت في صحبة السجان إلى الحجرات الضيقة الكئيبة الفاسدة الهواء، وإخوة السجن يثرثرون ويناقشون بصوت حاد ... وما أن رأوني حتى هرولوا صوبي في لهفهم المعهودة وهم يقولون: «الأخبار ...»

زممت شفتي ثم قلت: «لا جديد ...»

وبدا على وجوههم اليأس والضيق، إنهم يريدون أن يسمعوا أي شيء، يريدون أن أروى لهم بعض الشائعات، بل إن بعضهم يريد أن أكذب عليهم وأروي لهم بعض الأخبار المطمئنة التي يدبجها خيالي ... إنهم يفجعون إذا فاجأهم أحد بالحقيقة المرة، يخيل إلى أن كثيرين من المضطهدين والمعذبين يحاولون الهروب من الواقع، وقد يكرهون الحقيقة ... يتلذذون برسم عالم من الوهم والخيال تجرى فيه الأحداث على هواهم ... وجدتني أقول لهم في شيء من الثقة: «تأكدوا أن النصر قريب ...»

ألف سؤال بمعنى واحد انهالت علي: «وكيف عرفت؟؟»

ووجدت الزملاء أنفسهم لا يتركون لي فرصة للإجابة على تساؤلهم، بل تطوع كثيرون منهم بالقول «الزائر شخصية كبيرة وقد أسر لعثمان ببواطن الأمور، عثمان لا يستطيع أن يكشف النقاب عن مثل هذه الأمور الخطيرة... استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان

وصاح واحد منهم: «أعطوا الفرصة لعثمان كي يتكلم ...»

وانتقلت كلماتي البسيطة العامة، التي ليس لها دلالات خاصة محدودة، والتي لا تخرج عن كونها مجرد أمنيات رجل يؤمن بربه ويثق بنصره، انتقلت هذه الكلمات من فم إلى أذن، ومن هذا إلى ذاك، وتضخمت وكبرت، وأصبحت كالحقيقة المؤكدة القريبة الوقوع، وطوال هذا الوقت لم أجد فرصة أعبر فيها عن الحقيقة، وفي المساء آوى الجميع إلى فراشهم وعلى ثغورهم ابتسامات آملة...

مال علي «نور» هامسًا: «هل أتت جاماكا لزيارتك؟؟»

قلت متعجبًا: «كيف عرفت؟؟»

- «كانت تبحث عنك، وأخبرتني أنها تريد زيارتك... لكني سخرت منها وضحكت ...»

- «لماذا؟؟»

- «أمرها عجيب يا عثمان... ما كنت أتصور أنها ستجن بك لهذه الدرجة ...»

- «وهل عرفت أنها أسلمت؟؟»

- «أنت تمزح يا عثمان ...»

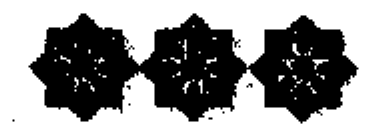
وهب من جلسته،، ووقف مبهوتًا وقال مستطردًا: «إني لا أصدق... لقد كانت تبشر بالمسيحية بين المرضى... وكانت تحدثني عن ذلك أملًا في أن ارتد عن ديني ...»

وشرحت لنور كل ما جرى، وهو لا يكاد يصدق ما أرويه له، كان يعتقد أن انتصار إيرونسي وتشوكوما وعصابات الإيبو في الجيش، تعني التمكين لهم ولحركات التبشير والنشاط الإسرائيلي، ولم يكن يتصور أن تسلم فتاة مثل «جاماكا» وهي تنتمي الآن للطبقة التي تحكم وتسود... وقلت في شرود: «عندما أخرج يا نور... فسأتزوجها... وسأتعلم منها كيف أعطي الدواء بالمحاقن، وكيف أعالج عيون المرمدين والمحمومين... وسنفتح بابنا لفقراء المسلمين الذين تزدريهم المستشفيات التبشيرية...»

وقال نور وقد بدا على وجهه غير قليل من الكدر: «ستتزوجها إذن؟؟»

– «ولم لا؟؟»
– «ما كنت أتصور أن يحدث ذلك»
– «امرأة فتحت قلبها لنور الله، فكيف أغلق بابي في وجهها؟؟»
– «أهي التي طلبت الزواج؟؟»
– «أنا أحبها يا نور»
– «كنت أدرك ذلك...»

وسمعنا ضجة بالخارج ففزعنا، ووجدنا صفًا طويلًا من المسجونين الجدد يساقون داخل مبنى السجناء، يا إلهي ها هو عبد الرحيم بينهم... ثم من هذا؟؟ إنه شيخي عبد الله يسير في المقدمة... وجريت صوبه، ولم أعبأ بركلات السجانة وقبضاتهم القاسية وهي تهوى على راسي وجسدي، واختطفت يدي شيخي لأقبلها وأغرقها بدموع الحب والفرح...



الفصل ١٣

أنا لا أطرب إذ أرى الناس يساقون إلى العذاب، ومع ذلك فقد امتلأ قلبي بسعادة كبرى وأنا أرى شيخي يدخل السجن، حاولت أن أتعمق مشاعري في هذه النقطة بالذات، فوجدتني أمام عدة تفسيرات، أولها أن الإنسان يحس بشيء من الاعتزاز وبمزيد من الثقة حينما يرى أن قائده يتعرض لمثل ما يتعرض له، إنه نوع من المساواة في تأدية فريضة الجهاد، وثانيها أني كنت كثيرًا ما أشعر بأن شيخي بمنزلة العم والأب، ووجوده إلى جواري يمدني بالحنان، ويسبغ علي مزيدًا من الأمن، وثالثها أنني أرى أن حركة المقاومة ضد الطغيان تنمو وتكبر، وأشاهد ذلك في تكاثر عدد الذين يساقون إلى السجن، وخاصة الرؤوس الكبيرة المفكرة أو التي كانت تحكم أو التي كانت تقود حركات النضال النظيفة، وربما تكون كل هذه الأسباب مجتمعة مضافًا إليها ما اعترى وضع «جاماكا» من تغيير هي التي أدت إلى ما ينبض به قلبي من اعتزاز وسعادة ويقين ...

وتلقيت عبد الرحيم بالأحضان، كنت أحبه وأشعر أنه إنسان طيب صافي القلب ذو ذكاء فطري، وإخلاص غير مصطنع، وكانت هناك مجموعة كبيرة من السجناء تتحلق حول الشيخ عبد الله في الأوقات التي يسمح فيها باللقاء الحر، غير أن الأمور لم تكن تسير في مجراها الطبيعي، إن أحلامي الكبرى تصطدم من آن لآخر بحقائق مذهلة، ووقائع مريرة، فلقد حدثت ظاهرة جديدة لم نكن نألفها في السجن، كنا منذ دخلنا حتى ذلك الوقت نكاد نكون على قلب رجل واحد، وكان هذا مظهرًا من مظاهر قوتنا وإصرارنا على السير في الطريق، غير أن بذور خلاف قد نبتت بين السجناء السياسيين كما يسموننا، فقد

ظهر بضعة أفراد يجاهرون بما يعانونَ من ملل وضيق، ويعلنون تشاؤمهم، ويزعمون أنه لا فائدة من المقاومة أو الإصرار على موقفنا، إذ أن حركة المقاومة - في ظنهم - لا تحرز أي تقدم، وأن الحكومة الجديدة قد أحكمت قبضتها على البلاد، وأن هناك تأييدًا خارجيًا يدعمها ويحرسها، ومن ثم أعلنوا رأيهم في الموقف بصراحة، وهو أنه لابد من التفاهم مع الحكام الجدد، والنزول على رأيهم، وإعلان التأييد لهم، حتى تفرج عنا، وتدعنا ننصرف إلى حياتنا وعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المنشقين كان قليلًا بحيث لا يزيد على أصابع اليدين والرجلين عدًا، إلا أنهم هددوا أمن المجموعة وسلامتها، وأحالوا أيام السجن إلى كدر وحزن شديد ... وتطور الأمر إلى مناقشات حادة، والمصيبة الكبرى أن «نور» قد انضم إليهم، قلت لنور: «كيف تجرؤ على هذا التصرف؟؟»

- «قال لا سلطان لأحد علي ... أنا حر ...»

- «لكنها قضية شعبنا يا نور ...»

- «أنتم تخدعون أنفسكم كما خدعت نفسي بالأمس ... ليست هناك قضية ... هناك صراع على الحكم، ومن الحمق أن أشترك فيه ... فلن أكون وزيرًا في يوم من الأيام ... وأنت كذلك ... نحن وقود لأطماع الزعماء».

آلمني حديثه، كنت أرى على وجهه ملامح شخص آخر غير نور الذي كنت أعرفه، لم يكن يخجل أو يخاف عندما يصرح بآرائه، وبلغت به النذالة مداها، حينما طلب ورقًا وأقلامًا ليكتب التماسًا لرئيس الحكومة أعني الحاكم العسكري العام، كنت أتحرق غيظًا وغمًا، قلت له: «تستطيع أن تعيد النظر في الأمر ...»

- «قررت أن أحيا لنفسي ... أنا أمارس حياتي في الخارج على أي وضع ... لم يعد لأي شيء قيمة ...»

- «أنت جندي في جيش الحق يا نور ...»

قهقه بصوت مرتفع وقال: «الملايين في الخارج تستمتع

بوجودها ... لماذا أنا وأنت بالذات نهرع إلى ارتكاب الحماقات؟؟ لو كنت مكانك لأسرعت بتقديم اعتذار مكتوب كي أخرج ... إن جاماكا تنتظرك ...»

وشرد بضع لحظات ثم قال في صفاقة لم أعهدها فيه: «أتعرف أنني كنت أحبها ...»

صرخت في دهشة: «ماذا؟؟»

– «نعم ... كنت أحبها ... لكنها رفضتني ... كانت تسخر مني لست أدري لماذا ... وعندما عرفتك وجدتها تهرول إليك كالمجنونة ... كانت على استعداد أن تكون جارية لك ... هناك أشياء كثيرة في الحياة لا يمكن تفسيرها ... أتعتقد أن هناك فئة من الناس خلقت للشقاء يا عثمان؟؟ ولماذا يشقى قوم ويسعد آخرون؟»

قلت له وأنا أتمالك أعصابي: «هل شربت كأسًا؟؟»

ضحك في امتعاض وقال: «يا ليت ... لكن عندما اشتاق للخمر ولا أجدها أبدو وكأني سكران ... أتخبط وأهذي كالمحموم ...»

– «ألا تذهب لتصلي بضع ركعات؟؟»

– «إنني أهرب من مواجهة ربي ...»

– «لكنه معك أينما كنت يا نور؟؟»

– «أتظنه يا عثمان كان معي وأنا أتسكع جائعًا عاريًا بلا مأوى والتعاسة تطحنني بلا عمل ولا مال ولا حبيبة؟؟؟»

أمسكت بذراعه وهتفت: «إستغفر الله يا نور ...»

– «ذنوبي أكثر من أن يمحوها استغفار ...»

– «أنت مريض ...»

– «وهذا هو عزائي ... ألست تقول أنه ليس على المريض حرج ...»

– «لكنك يجب أن تفعل شيئًا طيبًا يا نور ... يجب أن تصمم على أن تخرج من محنتك ... كلنا نعاني بطريقة أو بأخرى، لكننا نصبر ونصمد وننتظر نصر الله ...»

قال في حدة : « لأنكم حمقى ...»

وهممت أن أصفعه، لكني تماسكت، الداعية إلى الله يجب أن يكون على قدر كبير من التسامح والصبر وإلا ما استحق أن يحمل شرف الرسالة العظمى ... وانتزع نور نفسه من مجلسي وانصرف.

كانت الورقة والقلم في يده، وكان يتجه هو وبعض المنشقين نحو غرفة قائد السجن ... وفجأة انقضت عليهم مجموعة من المتحمسين، وأشبعوه هو ومن معه ضربًا ... كانت مأساة مؤلمة، دماء الإخوة المظلومين تسيل وتمتزج، لقد تيقظت الفتنة، ورأيت ضابط الإيبو يقف خلف زجاج النافذة داخل حجرته يبتسم في سعادة، ومنع السجانة من التدخل لوقف النزيف، كان يتمنى أن تستمر المعركة، ويزيد النزيف، وتتمزق أواصر الإخوة، فتنهد المقاومة، وتفرغ الحكومة الجديدة من المناوئين ... ورأيت شيخي عبد الله يشرق بوجهه الطيب ... واقتحم المعمة كفارس تقليدي معمم دون تردد أو وجل، وصرخ صرخة اهتزت لها جنبات السجن : «كفوا أيديكم أيها الإخوان ...»

وأصيب الصراع الحامي بالشلل، توقفت الأيدي والعصي والأرجل، ووقف كل في مكانه، وارتمى في ساحة المعركة رجلان يئنان من الجراح، وشدت الأعين والأسماع إلى الرقعة الصغيرة التي كانت تشتعل خلافًا ووحشية منذ لحظات، وتجلى الشيخ في الوسط كينبوع من الصدق والشجاعة والحب والإيمان ونادى بأعلى صوته : «أي أبنائي الأعزاء ... كلكم أبنائي ... إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ... هذا ما قاله نبيكم ﷺ ... ومن قديم كانت المعركة الأصيلة هنا – وأشار إلى قلبه – فمن انتصر على نفسه الأمارة بالسوء ... دانت له الدنيا، وخضعت له رقاب الجبابرة ... النصر آت، لكنكم قوم تستعجلون، والموت لابد آت، ففيم الخوف، والجنة معدة للمتقين، فلم تهرولون إلى النار ... طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ... قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله ...»

كان وقت العصر قد دخل، وسمعت صوت أحد السجناء يؤذن بصوت ندي شجي «الله ... الله أكبر ...» وما أن انتهى الآذان حتى أخذ الجميع يلتحقون بالصفوف في هدوء ...

ووجدت نور - للأسف - ممسكًا بالورقة، متجهًا صوب غرفة القائد، وفي نظراته جنون، ومن جرح في جبهته تسيل قطرات من دماء ... كنت أعاني وقتئذ من حر شديد ...

وقضينا ليلة عصيبة تؤرقها الذكريات الدامية، وفي صباح اليوم التالي كان الشيخ عبد الله يقول لنا: «ابحثوا عن الجاني ...»

وبعد لحظات جاء أحد السجانة، واستدعى «نور»، وطلب منه أن يجمع حاجاته، فأسرع على التو بجمعها، وقال العسكري: «لقد صدر أمر بالإفراج عنه ...»

وهز الشيخ عبد الله رأسه قائلًا: «علمت من مصادر يوثق بها أن نورًا هو الجاني ... ما أبشع الفارق بين اسمه وفعله ... هو نور ... وقلبه يمتلئ بالظلام ... صدق الشاعر العربي القديم إذ يقول: ...»

وأسميته صالحًا فاغتدى
بضد اسمه في الورى سائرًا
وظن بأن اسمه ساترًا
لاعيا به فغدا شاهرًا

وهكذا الدنيا يا أبنائي تخدع قصار النظر ... لو نظرنا إلى بعيد ... لوجدنا على الشاطئ الآخر نعيمًا مقيمًا ... لكن عيبنا أن بعضنا مصاب بقصر النظر ... وهو على أية حال ليس مرضًا خلقيًا كالذي نعرفه ... انحراف يعالج بالرياضة الروحية ... رددوا معي جميعًا هذه الكلمات «استغفر الله، وسبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر ...» قولوها ألف مرة ...

وجلس الجميع كخلية النحل وقد غمرها الطنين، كانت العيون مسبلة والقلوب معلقة بالله، وكل شيء عظيم أو مخيف في هذه الدنيا

يتضاءل ويضمر أمام دفقات الإيمان التي تغمر القلوب والأرواح ... وقطعنا رحلة روحية ممتعة، غبنا فيها عن سخافات الوجود، وأحزان الواقع، لنعود إلى هذا الواقع وقد تزودنا بقوة لا ترهب الحديد والنار وعار السجانين ... وعلمنا من بعض السجانة بعد أيام أن «نور» قد ظهرت صورته في إحدى الصحف، وأدلى بحديث لمحررها، زعم فيه أن المعتقلين السياسيين يعيشون في أمن واطمئنان تحت رعاية الحكومة وعطفها عليهم، وأنهم قد أبدوا تأييدهم الكامل لسياسة الحكومة الجديدة، وندموا على ما فعلوا، وسيفرج عنهم في وقت قريب، كما علمنا أن نور يرتدي الفاخر من الثياب، وأصبح موظفًا محترمًا، وأنه يقضي سهراته في الحي الجديد من المدينة يسكر ويعربد ...

ترى هل ظن المسكين أنه قد وجد الحل الصحيح لمشكلته؟

ومتى كانت الخيانة طريقًا للأمن والسعادة والاستقرار؟؟

وقال شيخي: «انظروا إلى السماء ... نحن في آخر الشهر العربي ... والظلام دامس ... والنجوم تقاوم الظلمة ... لكن لا تنسوا القمر ... سوف يسطع عما قريب ... واذكروا أن بعد الليل نهارًا ... هكذا الدنيا ... ولكنكم قوم تستعجلون ...»

قلت في مرارة: «يا شيخي ... الطغيان يتوطد ... والسفلة يسودون ...»

وابتسم وقال: «عندما يعجز البشر ... تأتي سفينة نوح ... أو تنقض صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ... يا أبنائي ... ارفعوا راياتكم الخضراء، واكتبوا عليها: «وكان حقًا علينا نصر المؤمنين» والله سبحانه لا يخلف وعده ... ما دمنا مؤمنين ...»

وطال بنا المقام في السجن، وقد حرص شيخنا على أن يرغب السجناء في حفظ القرآن الكريم وقراءة تفاسيره، كما دعاهم إلى القراءة المستمرة، وتثقيف أنفسهم، واستغلال بعض الوقت في ممارسة الألعاب الرياضية من جري ووثب وحفلات للسمر البريء،

وكنا نتحلق حوله في الأمسيات لطويلة، يحدثنا عن تاريخ قبائل الفولاني والهوسا وملوك المسلمين وكيف انتشر الإسلام في بلادنا، وكيف تسلل المستعمرون إلى ديارنا، وأحالوها إلى سوق للعبيد ... وكيف أن ديننا هو دين العزة والوحدة والكرامة والحرية ... وأن الاستمساك به هو الطريق الوحيد إلى النصر ... وكنا نستمع إلى حكاياته القديمة والحديثة وكأننا أطفال تسحرهم حكايات الجدات والجدود ... نقبل عليها في نهم، ونروي بها ظمأنا إلى العدل والحب والحرية والمثل العليا ...

يا لها من أيام جميلة برغم ما شابها من أحزان !!

إني أتذكرها الآن بعد أكثر من سبع سنوات فيخفق قلبي، وتشدني الذكرى، وأهيم في جنباتها واستنشق عبيرها السحري ... ما أحلى أيام الكفاح !!



الفصل ١٤

كان الله في عونك يا «جاماكا» ! ! لشد ما عانت في هذه الفترة العصيبة من أهوال ، هذا ما روته لي فيما بعد ، لقد ضاقت في وجهها كل السبل ، وخاصة بعد أن سجن الشيخ عبد الله ، وبعد أن أصبح معروفًا أنها قد اعتنقت الإسلام ، طاردتها المؤسسات التبشيرية في عنف ، لاحقتها بالتهديد والتخويف ، في وقت ارتفعت فيه رايات الإيبو والقوى المسالمة للاستعمار ، إن جل المستشفيات في يد الكنيسة ، والكنيسة غاضبة عليها ، ولذا كان من الاستحالة بمكان أن تجد عملًا في مستشفى آخر بعد أن فصلت من المستشفى الأول ، وأصيبت المسكينة بما يشبه الصدمة ، لقد علمها القساوسة والرهبان في البداية أن الدين محبة وتسامح وحرية ، وأنه يرفض التعصب والعنف ، ويقدس كرامة الإنسان ، لكنها الآن ترى بعينها انهيار القيم التي حدثوها عنها في قرى وغابات الإيبو من قديم ، ابتساماتهم الحلوة تحولت إلى تجهم وتكشير عن أنياب الغدر ، كلماتهم الرقيقة أصبحت زجرًا وسبابًا ، لمسات الحنان انقلبت إلى دفع وقسوة ... حاربوها في رزقها حتى كادت تموت جوعًا وتمتمت جاماكا : «كان إسلامي اختبارًا لماهية المبادئ التي يتشدقون بها ، إنهم متعصبون حمقى ، تحركهم نزوات حيوانية تشبه نزوات الحيوانات في الغابات ، لم أعد أشك في أن هذه المؤسسات التبشيرية لا تعرف الكثير عن الله أو الإنسان ، إنهم مجرد تجار ... جنود في جيش كبير يخدع العالم ، ويمهد لانتهاب ثرواته ، والسيطرة على مقدراته ... ما أبشع الفارق بينهم وبين حبيبي ... عثمان إنسان نبيل يعرف الله حق المعرفة ... المصيبة الكبرى أنهم

دفعوا إلي ببعض جواسيسهم كي يغروني بالمال تارة، وبالزواج تارة أخرى ... جاءني مرة دكتور «هانيمان» ... وهو طبيب ومبشر في أكبر مستشفى بالعاصمة ... كان هانيمان ثلجي المظهر، الابتسامة لا تفارق ثغره، ابتسامة دائمة لا ترتخي أبدًا، لكني أكرهها ... إنه يرتدي هذه الابتسامة كما يرتدي حذاءه ... ويخلعها عندما ينام ... لحظات خاطفة كنت أرمقه وهو وحده ... فينسى نفسه ... وتختفي الابتسامة ويحل محلها بريق شيطاني، ووجه مكفهر ... يبدو أنه كان يمل التمثيل الطويل الذي طبع عليه ... وهو يتقاضى مرتبًا كبيرًا من مجلس الكنائس الأعلى في أوروبا ... غير متزوج ... أقول جاءني أبان محنتي وهمس في أذني : »

– «أنت لطيفة جدًا يا جاماكا ...»

– «أشكرك ...»

– «منذ أن رأيتك تشتغلين هنا وأنا أرمقك من طرف خفي»

هززت رأسي قائلة : «أعرف ...»

ضحك وقال : «حسنًا ... وآمنت أنك فتاة طيبة ...»

– «لم تقل لي هذا من قبل ...»

– «الرجل يستطيع أن يكبت عواطفه نحو المرأة ... لكن إلى حين ...»

والتفتت إليه قائلة : «ماذا تريد مني بعد أن طردتني من العمل ...»

– «أنا لم أطردك ...»

نظرت إليه في دهشة، وازدادت دهشتي حينما سمعته يقول : «فقط أردت أن أحتفظ بك لنفسي ...»

هتفت : «كخادمة؟؟»

ضحك وحاول أن يلمس يدي، ففرت منه، لكنه قال : «بل أردت أن أتزوجك ...»

صرخت : «تتزوجني؟؟»

- «نعم ...»
- «أنظر إلي وجهي جيدًا ... إنني سوداء ... أفريقية من ساحل العبيد ... هل نسيت؟؟»
- «كلنا إخوة يا جاماكا ...»
- «هل نسيت أني مسلمة ؟»
- «هذا أمر بسيط يمكن التغلب عليه»
- «كيف؟؟»
- «تتركين هذه الخرافة ...»

صعقت لجرأته، وهممت أن أصفعه، لكن يدي لم تتحرك، لم يتعود الأسود أن يصفع الجنس الأبيض، حتى كنائسنا كانت لنا خاصة ... للسود كنائسهم وللبيض كنائسهم في أغلب الأحيان وقلت في سخرية : «من قال ذلك يا دكتور هانيمان؟؟»

- «لا يعقل أن تتركي المسيحية هكذا ببساطة ... لقد ظلت الكنيسة تعلمك وتعظمك وتدربك سنوات طويلة ...»
- «أنا لم أبع نفسي للكنيسة ... لست رقيقًا ... إنني إنسانة وأختار ما أؤمن به ...»

لم يرتح لكلماتي، اختفت الابتسامة المصطنعة، واكفهر وجهه، واحتقن جلده الثلجي، وصرخ وهو يقهقه : «هل ظننت فعلاً أنني أريدك زوجة؟؟ كان مجرد مزاح ...»

- «كنت أعرف أنكم بلا قيم محترمة ...» نظر إلي بعيني وحش مفترس : «ستدفعين الثمن غاليًا»
- «أنا لم أرتكب جرمًا ...»
- «لم يزل كل شيء بأيدينا ...»
- «الأمر بيد الله ...»
- «والله معنا ...»
- «لقد شوهت معنى الألوهية في أفكاركم، وخلطموها بنزواتكم ... أنتم لا تعرفون الله ... فقط تحسنون الكلام، وتجيدون

الزيف والتمثيل ، أنتم أساتذة الخديعة ...»

ولم تجد جاماكا مفرًا بعد أن طال احتجازي خلف الأسوار سوى أن تهرب من المدينة إلى مدينة أخرى ، لقد ذهبت إلى «زاريا» وغيرت اسمها ورداءها ، أصبح اسمها «سعيدة» ولبست «اللابا» و«البوبا» ، وتحجبت ، وذهبت لتخدم في قصر أرملة لثري كبير ، وهناك نعمت بغير قليل من الهدوء والاستقرار ، وتعلمت الفرائض من صوم وصلاة ، وبعض المبادئ الأولية في الإسلام ، وروت لها الأرملة الحاجة الكثير عن الأراضي المقدسة وقصص الأنبياء وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وكرامات الأولياء ، غير أن الكثيرين من أهل نيجيريا يعشقون التصوف والمتصوفين ، ولديهم كثير من الأقاصيص عن رجال الله قد تبلغ في كثير من الأحيان مبلغ الخرافات التي لا يصدقها عقل ...

وكانت تتساءل من وقت لآخر عن الأحداث التي تهز البلاد ، وحركات المقاومة والاغتيالات التي أصبحت تبث الرعب في القلوب ...

كانت تشعر بحلاوة الصبر ، وجلال الإيمان في هذه الأسرة الهادئة ، ولم تكن تتصور أن العيون تتابعها عن كثب ، وأن الحقد التبشيري يلاحقها ... كان عجيبًا أن يهتموا بفتاة من الإيبو لا وزن لها هذا الاهتمام كله ، لكن القضية على ما يبدو لم تكن كذلك ... كان اعتناقها للإسلام يعني الهزيمة لهم ولجهودهم ، ويعني السخرية منهم ومن سلطتهم ... ذات مساء دق الباب رجل من الشرطة : «نريد جاماكا»

– «ليس عندنا أحد بهذا الاسم ...»

– «تلك هي صورتها الفوتوغرافية ...»

ودقق الحارس النظر وقال : «هذه سعيدة ...»

– «هي بعينها جاماكا ...»

– «لكن لماذا تسأل عنها ...»

– «هي متهمة بالسرقة والتبديد ...»

– « مستحيل ... إنها كالملاك البرئ ... »

قهقه رجل الشرطة : « الحمد لله أنها لم تغرر بكم ... »

وسيقت المسكينة بين النواح والعويل والتوسل إلى الحبس التحفظي ، لقد حزنت ربة البيت من أجلها ، لكنها لم تستطع أن تحميها ، وأمام دموع سعيدة وتوسلاتها وكلت الأرملة محاميًا للدفاع عنها ...

وعلى الرغم من أن سعيدة – أو جاماكا – كانت محجوزة خلف الأسوار بتهمة مخلة بالشرف إلا أنها أكدت لي فيما بعد أنها كانت تشعر بسعادة لا حد لها ، كانت تدرك بوضوح أن ما تتعرض له من عنت وعناء كله ظلم بين ، وليس هناك من سبب لهذا كله سوى إسلامها ... لقد بلغت مرحلة التضحية والإيذاء في سبيل الله ، لكم حدثتها ربة البيت عن بلال الحبشي وما قاساه من صنوف العذاب ، وعن زينب بنت الرسول الأعظم ﷺ التي أجهضوها وهم يضربونها ، وعن نساء كثيرات فضليات في فجر الدعوة الإسلامية ، إن سعيدة تشعر بالإيمان أكثر من أي وقت مضى وبحلاوة التضحية ، وروعة الإيمان ، وتجد في العقاب راحة نفسية لا حد لها ...

قال لها المحقق : « أنت متهمة بسرقة عدد من الآلات الطبية من المستشفى ، وبعض الأدوية الغالية الثمن والمسجلة عليك في دفتر العهدة ... والدكتور هانيمان يتهمك بسرقة حافظة نقوده أثناء تواجده في غرفة العمليات الجراحية ، فما قولك ... »

وابتسمت سعيدة قائلة :

– « إنهم يكذبون ... القصة بدأت منذ ... »

وأخذت تروي تفاصيل كل شيء ، وبعد أن انتهت من حديثها زجرها المحقق وهو من قبائل الإيبو مثلها ، وقد تلقى تعليمه في المدارس التبشيرية ، ثم أكمل دراسة الحقوق في بريطانيا ، زجرها المحقق قائلاً : « إن هناك ثلاثة من الراهبات الممرضات يشهدن ضدك ... »

هتفت في ذعر : « راهبات؟؟ مستحيل ... إنهن لا يكذبن »
– « أنت إذن لا تطعنين في شهادتهن ... وهذا يدينك ...»
– « يا إلهي ...»
– « اعترفي ... هذا أفضل ...»

وعادت بها الذكريات إلى الوراء ، عندما اعتنقت النصرانية ، وتركت الوثنية ، لم تتعرض لشيء من الزجر أو الاضطهاد ، بل على العكس تمامًا من ذلك ، فقد فتحت الإرساليات التبشيرية لها الباب على مصراعيه ، ووهبتها فرصة التعلم والتوظف ، وانهالت عليها الهبات ، وكانت تحظى دائمًا بمزيد من الرعاية والاهتمام ، أما بعد أن اعتنقت الإسلام ، فلقد أصبح الأمر جد مختلف ، أغلقت الأبواب في وجهها ، وألصقت بها التهم ، وحوربت في رزقها وشرفها ، وجند لها عدد من القذرين لملاحقتها والبحث عنها وها هي تقف الآن على أبواب السجن .

قال المحقق : « هيه ، فيم تفكرين؟؟ ألن تتعلمي أن الاعتراف يغسل الذنوب »

– « بل تعلمت في ديني الجديد أن الندم المقرون بالتوبة ، والذي يتبعه عمل صالح هو الذي يمحو الخطايا ... مجرد الاعتراف لا يعني شيئًا ...»

هز المحقق رأسه وقال : « إذن أنت تقرين بالسرقة ...»

– « أقول إن الذين يحاولون إلصاق التهمة بي إنما هم المجرمون ...»

ثم أمسكت بذراع المحقق وهتفت قائلة : « هم يجرمون في حق وطننا ، وحقك أنت أيضًا كرجل قانون ...»

– « وأخيرًا في حقي أنا المظلومة ...»

وانهمرت دموعها غزارًا ، وطأطأ المحقق رأسه، وهمس : « جففي دموعك ... معذرة يا جاماكا ...»

هتفت من بين دموعها : « اسمي سعيدة »

- «معذرة يا سعيدة ... أنا لست كاهنًا أو قسيسًا يربت على رأس الخطاة، ويجلب لهم الغفران ... أنا رجل قانون، أتعامل بالقرائن والشهود الأدلة ... قد تقعين تحت طائلة العقاب ظلمًا ... لكن لا حيلة لي في الأمر ... ولهذا فأنا أصدر أمرًا بحبسك رهن التحقيق ...»

وتمتمت سعيدة في هدوء: «إن في قلبي شعورًا من الابتهاج لا يعرفه إلا المؤمنون الحقيقيون ...»

نظر المحقق إليها نظرة طويلة وغمغم: «سأصلي من أجلك ...»

- «أنا أعرف الصلاة جيدًا ... وليس بيني وبين الله وساطات ...»

«إنه رب السود والبيض ... أشعر به سبحانه أقرب إلي من حبل الوريد ... وسأنتظر رجلي حتى يعود ... وعندما يعود عثمان ... ستورق حياتي بأجمل الأحلام ... وستبتسم لي الزهور ... ونغني للحب الحقيقي ... وللسعادة ...»

❁❁❁

الفصل ١٥

كانت بلادي تجتاز فترات عصيبة من تاريخها المليء بالشجن، والذكريات، السذج والجهلاء يسقطون في حبائل الشيطان، فيؤججون نار الفتنة والانتقام، والقتلى في كل مكان، والحكومة العميلة تورث الأحقاد، وتبث الفرقة، ونحن نعيش في السجن لا نستطيع أن نغير وضعًا، أو نسهم بجهد عملي في تحويل الأحداث، والحكام الجدد يضربون في حمق وجنون، لم يعد لهم من هدف سوى أن يبقوا على كراسي الحكم، وشغلتهم هذه الغاية عن كل شيء آخر يتعلق بأمن الوطن وسلامته ... أما قضايا الأمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد أصبحت مجرد شعارات وخطب يتسلى بها الحاكمون، وغدت وعودًا لا تغني ولا تسمن، فانتشر الفساد، وعم اليأس، وبدت البلاد وكأنها مريض يعاني من مرض عصبي، تتناوبه التشجنات، أو يغرقه الذهول، أو يسيطر عليه الهذيان، ولم يعد هناك أدنى شك في أن العسكر الحاكمين أصبحوا لعبة في أيدي القوة الاستعمارية الخفية والظاهرة، ذلك الانتكاس الوطني سوف يعاني شعبنا منه طويلًا لا شك، لأن بذور الفساد والضياع التي يدسها الخونة في أرض المجتمع، سوف تنبت اسوأ الثمار، وحتى لو خلع هؤلاء الخونة، فسيبقى أثرهم بعد حين، ويتطلب الخلاص من عبثهم وقتًا ليس بالقصير ... ولم يعد لشعبنا من قضية بالتالي سوى أن يتخلص من هذه الشرذمة الحاكمة، ايرونسي وبطانته، وتحولت قضية الوطن بكاملها إلى صراع على السلطة، وهل في استطاعتي وأمثالي أن نحول مجرى الأحداث هكذا ببساطة وسرعة، إن الأمر يحتاج إلى

نضال طويل ومستمر ، وهذا ما يجب أن أوطن عليه نفسي منذ الآن .

ولاحظت أن شيخنا « عبد الله » يحدثنا دائمًا عن الصبر ، ويحاول أن يفسر لنا معناه الشامل المحيط، فليس الصبر كما يقول مجرد استسلام ورضى بالواقع ، ولكنه فترة عمل وتفكير وتدبير دون تعجل حتى الثمرة ، وليس الصابرون كتلًا من الأحجار ، أو تماثيل صماء ، ولكنهم أولًا وأخيرًا رجال مؤمنون، يصمدون للعواصف، ولا تزعزعهم النكبات ، أو تونسهم الكوارث، أو تنسيهم الاضطهادات الغاية الكبرى التي نذوروا أنفسهم من أجلها ، وكان يقول : « عاش نوح عليه السلام يدعو بين قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ... ولم يكن الطوفان شرًا ، بل كان عملية تنقية للشوائب ... وكان اختيارًا ... لم يرغم نوح أحدًا على الركوب في سفينته ... اختار الأشرار مصيرهم ، وهدى الله الأخيار إلى مصير آخر ... وعندما قال الله : »

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعدًا للقوم الظالمين﴾

« عندما حدث ذلك ... ولد مجتمع الصفوة الطاهرة ... التي تعرف حق الله ...»

قلت لشيخي في شيء من الضيق : « ومتى يأتي الطوفان يا مولاي ؟ »

- « إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا ...»
- « أنصبر كما صبر نوح عليه السلام؟؟ »

ابتسم شيخي في رضا وقال : « سبحانه وتعالى ... كل شيء عنده بمقدار ...»

- « آمنت بالله ...»

ولم تكن أيام السجن تمر هادئة دائمًا دون عواصف ، فقد كانت تجد أحداث مزعجة بعض الشيء ، فهناك تاجر يعيش معنا وصلته أنباء أخيرًا ، تؤكد له أن تجارته قد بارت ، وأنه قد فقد رأس ماله ، وجاء إلى شيخنا يبكي : « أنظر يا مولانا ... لقد ضاع تعب العمر كله

في لحظة ... خسرت كل شيء ، غدر بي الصديق ، وخانني الشريك ... وأصبحت لا أملك شيئًا ...»

قال شيخنا في هدوء : « أنت تعرف الطريق »

– « أنا لا أعرف سوى أنني قد أصبحت مفلسًا ...»

– « أنت تعرف الطريق »

– « أي طريق يا مولانا ...»

– « ستبدأ من جديد ... المؤمن الحق لا يفكر في الفقر والغنى بقدر ما يفكر في أن يسير في الدنيا على هدى أوامر الله ... وهذا هو معنى أنك ستعيش في رغد دائم ...»

– « أما كان من الأفضل يا شيخي أن أبتعد عن هذا العناء وأسهر على تجارتي ، وأستطيع بذلك أن أساهم بقدر مادي أكبر في المعركة ...»

وتربع شيخنا وأخذ يرتل بضع آيات من القرآن الكريم ، تشرح للمؤمنين كيف أن الآباء والأبناء والأموال والتجارة التي نخشى كسادها ، إذا كان هذا كله أحب إلينا من الله ورسوله وجهاد في سبيله ... فقل على الدنيا العفاء ، ثم قال الشيخ : « التجارة الحقة هي الجهاد في سبيل الله ...»

ثم اتجه شيخنا مرة أخرى إلى السماء ورفع كفيه وهتف داعيًا :

« اللهم لا أسألك الرزق فقد فرغت منه ، ولكني أسألك البركة فيه »

تلك صورة من صور الأحزان التي يعمر بها سجننا القاسي المظلم ، وهناك من فقد فرصة التعليم ، وتعطل عن اللحاق بجامعته في الخارج ، ومعنا بعض الطلبة الذين يتلقون العلم في الأزهر في جامعة الزيتونة وغيرها ، هؤلاء جميعًا منعوا من السفر وسيقوا إلى السجن ، وهناك من طلبت زوجه الطلاق ، وهناك من تشرد أهله بعد أن حبس عائلهم الوحيد فمضوا في الطريق يبحثون عن عمل كي يقتاتوا من ورائه ... وإلى جانب هذه الصورة القاتمة ، كانت توجد قصص للبطولة والفداء تدعو إلى الشرف والفخار ...

كانت هذه التجربة - أعني دخول السجن - تجربة ثرية مليئة بالأحداث والانفعالات والأفكار، كانت شيئًا جديدًا في حياتي ترك في نفسي آثارًا لا تمحى إلى الأبد، إن الأيام التي أقضيها خلف الأسوار تعني «مرحلة تعليمية» من طراز آخر غير الذي يعرفه في سبيل المبدأ قد فاتهم خير كثير، أعني قد خسروا نوعًا من المعرفة والتجربة لن يجدوه في أي مكان آخر، حتى ولو نالوا من الشهادات والإجازات الدراسية أعلاها، أو قرأوا آلاف الكتب ...

قلت لشيخي: «أكان من الضروري أن يساق يوسف عليه السلام إلى السجن؟؟»

- «إرادة الله لا تناقش يا عثمان ... ولا تسألني مرة أخرى أكان من الضروري أن يباع بدراهم معدودة ويصبح عبدًا ... كل ما يمكنني قوله هو أن الابتلاء هو الآخر نعمة قد ينعم بها الله على عباده الصالحين ... العبرة بالطاعة ... العبرة بالنتيجة ...»

وسادت فترة صمت قال شيخي بعدها: «ألا يمكن أن تكون الفتنة التي تعرض لها يوسف على يد زوجة العزيز أعنف من ليالي السجن، وأشق من أيام العبودية بالنسبة ليوسف؟؟»

قلت في دهشة: «لا أعرف ...»

- «إن كيدهن عظيم ...»

- «ودانت ليوسف رحاب مصر، أتدري لماذا؟؟»

- «لماذا؟؟»

- «كان في سجنه الأسود يدعو إلى الله ويقول: ﴿يا صاحبي السجن، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾؟؟»

تمتمت في استسلام: «الله الواحد القهار ...»

- «أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق»

- «تعالى سبحانه عما يقولون علوًا كبيرًا ...»

وجيء بالطعام ونظر إليه شيخي وقال وهو يبتسم: «أخاف أن اشبع فأنسى الجائع ... هكذا كان يقول يوسف يا أبنائي ... وأنا اليوم

صائم ...»

ثم وثب شيخي ، ونادى بأعلى صوته : «سقط ايرونسى ايرونسى وتشوكوما ... والمتمردون»

واحتشدنا حوله في انبهار ، وقلت : «ماذا؟؟ هل حدث ذلك فعلاً؟؟»

ابتسم الشيخ وقال : «لقد سقطوا منذ زمن بعيد»

– «لكنهم ما زالوا يحكمون يا شيخي ...»

وأشار شيخي بيده اليمنى قائلًا : «أنظروا ... هذه الأسوار ... وأبراج الحراسة ... والعسكر يحملون السلاح ... وصراخ المعذبين يتردد صداه ... آه ... أنتم لا تنظرون إلى بعيد ... عيونكم دائمًا على المعسكر والأسوار والأسلاك الشائكة وسياط الجلادين ... أنظروا إلى بعيد ... لقد سقطوا جميعًا منذ أن انتهكوا حرمة الإنسان ... وداسوا الشريعة ... كل من تنكر إلى الله ... ولإخوته من البشر ... أصبح ساقطًا ...»

ثم التفت صوبي وقال : «أي عثمان ... اذهب إلى قائد السجن وقل له نريد أن نصلى الجمعة ...»

– «أنت تعلم يا شيخي أنه رفض ذلك قبل الآن ...»

– «حسنًا ... فلسوف أذهب إليه بنفسي ...»

الحقيقة إننا توجسنا خيفة ، لم نكن نريد أن يعرض الشيخ عبد الله نفسه لهذا الأمر المحرج ، فقد يعتدى الطغاة عليه بالكلام الجارح أو يضربونه ، وأصبحنا نرتجف ، ولم يكتم بعضنا نقده الشديد لهذه الخطوة من الشيخ ، لكننا لم نستطع أن نواجه الشيخ برأينا صراحة واحترامًا لرأيه .

عندما ذهب لقائد السجن نظر إليه القائد شذرًا وقال : «ماذا تريد؟؟ لن نستطيع أن نفعل لك شيئًا بالخارج ...»

– «بل جئت أطلب الصلاة ...»

– «نحن لا نمنعك ذلك ...»

– «اليوم الجمعة ...»

– « لا مانع ... على أن يكون بدون خطبة ...»

ابتسم شيخنا : « الخطبة ... ركن أساسي ... بدونها لا تكون صلاة الجمعة ...»

وكم كانت دهشتنا عندما قال القائد : « أريد أن أقرأ الخطبة أولًا ...»

– « لماذا؟؟ »

– « لأطمئن على أنها ليس بها أية مسائل سياسية ...»

– « حسنًا ...» ﴿يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين﴾

واستمر الشيخ يرتل صورة « يس » ، وما أن انتهى منها حتى قال : « هذه هي الخطبة ... مضافًا إليه بعض الأركان والشروط الخاصة بشكل الخطبة ...»

قال الرجل دون أن يفهم شيئًا يذكر : « لا مانع ... المهم ألا تذكروا شيئًا عن الحكومة أو ايرونسى ...»

– « لك ذلك ...»

وكان هذا أول حشد نكتمل فيه في السجن ، التقى كل الرجال بشتى أفكارهم وآرائهم السياسية ، وأخذ شيخنا يحدثنا طويلًا ، وكانت كلماته تنفذ إلى قلوبنا ، وكنا نستمد من كلماته كل ما نريد ، وكانت انعكاسات الخطبة ، ومدلولاتها الرمزية أوقع بكثير من الكلام المباشر عن وضعنا ووضع شعبنا ... وكانت الدموع تسيل على خدودنا وشيخنا يردد في دعاء الخطبة : « اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ...»

« اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه ...»

« اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ...»

وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا

وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ...

– « اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا أتباعه ...»

وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ...

اللهم آمين ....

أنني كلما سمعت مثل هذه الكلمات الطيبة أشعر بها تنفذ في هذه اللحظات أن يسمعها مثلي كل إنسان أعرفه أو لا أعرفه من أذني إلى قلبي - وتتمشى في عروقي ، وتملأ كياني كله ، وأتمنى دائمًا أدعو الله أن يستظل البشر كلهم بظل الإيمان ... ولهذا كنت أتمنى أن تكون «سعيدة» إلى جواري ، وتنعم بهذه الخيرات التي يفيض بها لسان سيدنا ومولانا الشيخ عبد الله .



الفصل ١٦

جاءتني رسالة من «سعيدة»، يا إلهي...
لم أكن أصدق أن ذلك سوف يحدث في يوم من الأيام، روت لي فيها الكثير مما كنت أجهله، ولقد حمل إلى الرسالة أحد العسكر وهو من قبائل الهوسا، حملها خفية، ولست أدرى هل فعل ذلك تطوعًا أو تقاضى ثمنًا باهظًا عليها ؟ هذا لا يهم الآن لقد فرحت أيما فرح بهذه الرسالة، وذهبت إلى مكان منعزل كي أقرأها على مهل، وأسعد بقراءتها، الرسالة الخاصة بالنسبة للسجين شيء ذو قيمة كبرى... وتكون أكثر قيمة عندما تأتى ممن أحب... وجلست أقرأ الرسالة :

«أيها الحبيب الغالي ....»

إن معاول الندم تضرب رأسي كل مساء، أقول لنفسي دائمًا لماذا لم ألحق بركب عثمان منذ أن عرفته؟؟ لماذا تأخرت عن الارتباط به ؟

لكني أعود وأقول، إن لله حكمة قد تخفى علينا نحن البشر الضعفاء، ولكل أجل كتاب... أنا لم أيأس برغم ما أعانى من عذاب واضطهاد، ولقد فكرت ألف مرة قبل أن أبعث إليك بهذه الرسالة، وذلك لأني لا يصح أن أبعث إليك بما يعكر صفوك، أو يبعث الضيق في نفسك... لكن موقف صديقك «نور» كان غريبًا غاية الغرابة منذ البداية، فمنذ أن عرفته أعطف عليه، ربما لما ألاحظه عليه من تعاسة، وما ألمحه من سخرية محببة، وخفة دم وحاول هو أكثر من مرة أن يستغل هذا العطف ليحمله أكثر مما يحتمل، توهم أني أحبه، وهذا ما لم يخطر ببالي قط، وعندما عرفتك وجدته يتقبل الأمر بشيء من عدم الاكتراث، بل اعتبره نوعًا من الموضوعات الطريفة التي تجلب المرح والتسلية، لكني فوجئت به ذات مساء بعد أن قررت أن اشهر إسلامي، وأخطط للزواج منك، فوجئت به يأتي إلي ويقول :

«لقد خلقنا الله لكي نعيش معًا إلى الأبد»

– «لا أفهمك يا نور»

– «جاماكا ... أنا أحبك ...»

وابتسمت له، وقلت: «لكن الأمر لا يتعلق بي»

– «أعرف ... تحبين عثمان؟؟»

– «هذا حق، والأمر يتعلق بقلب الإنسان»

– «إنه لا يصلح لك»

ذهلت عند سماعي لهذه الكلمات من صديق عزيز عليك، عندئذ رأيت أن أكون حازمة وواضحة أكثر فقلت له: «كل ما في الأمر أنني أحبه ولا أحد غيره ...»

– «تعلمين يا «جاماكا» أنه سجين، ومستقبله مظلم، وهو إنسان مغلق ... أورثه التعصب للدين ضيقًا في الأفق ...»

اكفهر وجهي وهتفت: «أنت تطعن صديقك»

– «أنا أحبه ... وهذا هو رأيي فيه ...»

– «أنت لا تعرف جيدًا لماذا يتحاب اثنان، ألا يجوز أن مثاليته هي نقطة الجذب فيه، ومع ذلك فهو إنسان متفتح ذو قلب ... رحب الفكر ...»

وبدا على ملامحه الغضب وقال: «إن ما تظنينه سعادة ما هو في الواقع إلا حماقة وتعاسة ...»

ووجدتني أقول له: «أنت آخر من يصلح لكي يكون زوجًا ...»

انصرف عني محتدًا، ومع ذلك لم يكف عن ملاحقتي، وتسبب لي في كثير من المتاعب، في الواقع هو إنسان غريب ذو نزوات، يدوس القيم بكل بساطة، وتأكد لي أنه ضالع في التعاون مع أجهزة الأمن والاستخبارات الحاكمة، وأشيع عنه الكثير، وأصبح الناس الذين يعرفونه يمقتونه أشد المقت، وعزمت أن أخبرك بالأمر في زيارتي لك، لكنني أحجمت في آخر لحظة، وكان يمكن أن يظل الأمر طي الكتمان، لولا أن انتقامه قد تعدى كل تصور، أكنت تعتقد أنه قد تقدم

يدلى بشهادته ضدي في القضية الظالمة التي دبرها دكتور « هانيمان » وعملاء الإرساليات التبشيرية ، نظر في صلافة وجرأة وقال : « رأيتك بعيني هاتين تبيعين الأدوية والآلات »

يا إلهي ، كيف يخون عطفي عليه ، ويتنكر لصداقته معك ، لكن الذي يبيع نفسه للجلادين لا يستغرب أن يفعل ذلك ، غير أني شعرت بأسى بالغ ، ومرارة قاتلة ، وعاد يقول : « وكان عثمان يستخدمك في بعض تحركاته ضد الدولة تحت ستار انتمائك للإيبو ، وعملك مع التبشير ...»

- « أنت تعرف ... إن هذه كلها ترهات يا نور »
- « وأنت لا تستحقين أي عطف أو تضحية ...»
- « أنت تظلمني بلا مبرر »
- « سأحطم حياتكما ... أنت وعثمان »
- « عثمان لم يسيء إليك »

قهقه قائلًا : «كان غنيًا ... وكان ينظر إلي كتابع ... وكان عطفه يثيرني أكثر مما يبعث علي الاحترام والحب ...»

- « لا ذنب له ... فأنت حاقد مريض ...»

ونظر نور إلى المحقق قائلًا : «سجل ... إنها تسبني ... وأنا أطالب بحقي ...»

« وجلست طوال الليل لا يقرب النوم جفني ، المظلومون يحترقون بنيران المظالم صباح مساء ، ويكادون يفقدون الثقة في كل شيء ، لو كنت داعرة عربيدة ، مستسلمة لذوى القوة والسلطة ، لكنت أميرة ألبس تاجًا من التقدير والاحترام ، مجتمعنا تسوده قيم قذرة في هذه الفترة ، التعسة ، ولكني واثقة أن الخير لا يموت ، وأن العذاب الذي نعاني من مصيره إلى الانتهاء ، وأعود أنظر إلى قضيتي فلا أجد لما أعانيه من سبب سوى أنني اخترت طريقي في العقيدة التي آمنت بها ، واخترت الرجل الذي أحببته ... أيمكن أن يكون ذلك جريمة أو إساءة إلى أحد؟؟ سؤال حائر ظل يتردد في رأسي حتى أذهب عني النوم ، وأورثني

القلق، لم أر شيئًا قبل ذلك في حياتي كالذي أراه اليوم، لم أره وسط الوثنيين في الغابات، ولا مع الجهلة والعراة في قرى الشرق أو الغرب، أو في صحراء الشمال... المدينة تضج بالعفن والكذب والخيانة... لشد ما أكره المدينة... لو خرجت أنت يا عثمان... فستكون جنتي الموعودة... ستكون البلسم الشافي لجراحي وآلامي، إنه حلم جميل أحلم به دائمًا... أراك إلى جواري عملاقًا قويًا، لا ترهب الخيانة، ولا تتراجع أمام جحافل التهديد والوعيد، وتهتف باسم الله كالبطل الأسطوري، وتمسح عن عيني الدموع، فأنت سلواي في هذه الأيام المضطربة الهائجة»

«ولا أريد أن أطوي هذه الصفحات قبل أن أبشرك بأن السيدة التي أعمل في خدمتها، قد تقدمت بعرض وهو أن تدفع ثمن الأدوية والآلات المفقودة، وبهذا أفرج عني، وعدت إلى قصرها الهادئ أنعم بالاستقرار والهدوء النسبي، ومع ذلك فإن الهواجس تنتابني من آن لآخر... كلما دق باب القصر خيل إلي أن عملاء الإرساليات قد أتوا مرة أخرى يسددون إلي اتهامات جديدة... أو أن نور قد أتى ليثأر لحبه الضائع... وإن كنت أعتقد أن إنسانًا هذا شأنه لا يعرف معنى الحب... لأنه لا يفكر إلا في نفسه... وأحيانًا أخرى أفكر فيك، وأتوجس خيفة من أن تمتد إليك يد الطغيان بسوء... وليس لي مفر من هذه الأفكار والبلبلة إلا أن ألجأ إلى الصلاة وأضرع إلى الله بدموع التوسل والرجاء... وأشعر بعدئذ أن قلبي قد امتلأ باليقين، وأن الآمال أقرب ما تكون إلى الازدهار والتحقق ...»

وطويت الكتاب... وظللت أعيد قراءته مرات... لكل عبارة طعم ومذاق خاص، إن «جاماكا» - أعني - سعيدة، قد أترعت جانبًا من حياتي بمعاني جديدة لم آلفها قبل ذلك إنها تجربة أثرت وجداني وروحي، وكان لابد أن تحدث، فهي ضرورة بالنسبة للاكتمال الذاتي أو الشخصي... لكني شعرت بعجز قاتل محير، تمنيت في هذه الساعات أن أعثر على نور وأؤدبه... ألقنه درسًا لم يتعلمه طول

حياته ، وماذا كنت فاعلًا وراء هذه الأسوار والأسلاك الشائكة ، وعدت إلى شيخي عبد الله ، والغضب يضطرم في نفسي : « شيخي ... إن نور قد بلغ المدى في الوقاحة ... ويسيئ إلى المحصنات من النساء »

هز شيخي رأسه قائلًا : « اطمئن ... هي في حصن حصين ... »

– « وكيف تنجو من عالم كله ذئاب؟؟ »

– « هناك الأتقياء الأخفياء ... وسعيدة إن هي اعتصمت بدينها كفاها شر الذئاب ... »

ثم رفع رأسه إلى السماء وهتف بالآية القرآنية : « ﴿ أليس الله بكاف عبده؟؟ ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ ... »

تمتمت في ارتياح : « صدق الله العظيم ... »

وواتتني فكرة فقلت لشيخي : –

– « مولانا ... إنني أعرض عليك رأيًا »

– « قل ، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ... »

– « ألا يمكن أن نخدع هؤلاء الحكام؟؟ »

– « تخدعهم؟؟ كيف »

– « الحرب خدعة ... »

– « أفصح يا عثمان ... »

– « أعني أن نظهر تأييدنا للحكومة ... ثم ننال العفو ، ونخرج من هنا لنبدأ المعركة ... »

ضحك شيخي ضحكة حزينة وقال : « العفو من الله يا عثمان »

– « نعم ... »

– « ويوسف – قال أبان الأزمة – عليه السلام : ﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ ... »

ثم عاد شيخي يرتل في صوت يمازجه البكاء : « ﴿ .... فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ... »

والتفت إلي قائلًا : « ألا تعرف طريق الحرية؟؟ »

- «دائمًا أريد أن أعرف يا شيخي ...»

- «التوحيد هو طريق الحرية... الله وحده هو حاكم هذا الكون... وهو المتصرف فيه... ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾... استغفر الله يا عثمان... وقم وتوضأ فقد أذنت الشمس بالمغيب واقترب موعد الصلاة... وانظر إلى الأفق وهو يشيع الشمس وتذكر ربك... وسبح باسمه بكرة وعشيًا ...»

وتطلعت إلى السماء توشحها السحب الذهبية، وبدا لي أن قطعة صغيرة من السحاب تضئ، ودققت البصر فيها، خيل إلي أنني أرى وجه سعيدة وهي تبتسم وسط ألسنة اللهب، ابتسامة صامدة... ذهبية الإشعاع... تنبض بالروعة والحب والتأبي على الفناء...

وشعرت بيد تلمس كتفي، فأفقت من حلمي، ونظرت، كان عبد الرحيم يقف خلفي ويقول: «يبدو إنك تترنم بالشعر ...»

❁❁❁

الفصل ١٧

أدرك شيخي أنني كثيرًا ما أشعر بالملل ، كان ذكيًا ذا فراسة ، ينظر إلى وجهي ، أو يلتقط كلمة من كلماتي العابرة ، فيدرك ما يعتمل في نفسي ، وبدا لي كأنه محلل نفساني من الطراز الأول ، عن موهبة فطرية ، وحس غريزي ، والأيام تكاد تمضي متشابهة ، ولم يعد هناك شيء جديد يشد انتباهنا ، أو يصرفنا عن التفكير المحزن في المستقبل الغامض ، وهمس شيخي في أذني قائلًا : «الإنسان عجول ، يتمني أن يضع البذرة في الأرض الخصبة ، ثم يغمض عينيه فإذا بها شجرة كاملة تتوجها الثمار ... هل هذا ممكن يا عثمان؟؟ »

أدركت ما يعني فهززت رأسي وكأني أعتذر ، فاستطردت : «نحن نرى اليوم الواحد طويلًا جدًا ...»

– « أجل ...»

– « إن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون »

– « أجل ...»

– « ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ ...»

ثم التفت نحوي وأمسك بيدي قائلًا : «ألا تعلم يا عثمان أن الله قال لمريم ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ ...»

« هل في إمكان بشر أن يهز النخلة فيسقط الرطب؟؟ لكن الله ينفخ من روحه في قدرة العبد الضعيف ... فتتحول طاقته المحدودة إلى قوة غلابة لا يستعصي عليها شيء ... وبعض العبيد الأتقياء يتحولون بالطاعة إلى درجة من الصفاء رائعة فيقولون للشيء كن فيكون ...»

كأنما شحنني شيخي بزاد روحي لا ينفذ ، فشعرت بأنني أستطيع أن أحقق المعجزات ، وأفعل المستحيل ، ونظرت إلى السجانين عن

كثب ، وإلى الأسوار العالية الضخمة ، والأسلاك الشائكة ، نظرت إلى ذلك كله فبدا لي تافهًا لا خوف منه ، ولا قيمة له وتمتمت في يقين : « إنه وحده القوى القاهر ...»

ونظر شيخي باسمًا إلى بعيد ، ثم أشار بيده قائلًا : « أنظر ...»

رفعت بصري ، فإذا بجمهرة من المساجين يحتشدون حول عدد قليل من العسكر ، وعلى وجوه الجميع اهتمام ، وساد لغط وجدل وصياح ، وهرولت إلى هناك ، وسمعت أنباء عجيبة من فم العسكر أنفسهم : «نعم بكل تأكيد سمعت ذلك بأذني من الراديو ... لقد قبض الثوار على ايرونسي والمتمردين الخمسة المعروفين ...

الدماء تسيل في الشوارع ... قائد السجن شحب وجهه ، وهرول إلى سيارته وانطلق لا ندرى إلى أين ... الرئاسة لا تستجيب لنداءاتنا ...»

وتعالت الهتافات والتكبيرات ، واختلطت الأنباء ، وفي كل لحظة كان أحد العسكر يأتي إلينا بجديد ، هذا يوم لا أستطيع أن أنساه مدى حياتي ، إن الفرحة التي غمرت قلبي تكفيني طول العمر ، أحسست أن الله قد عوضني عن الأيام السوداء الطويلة ، سأعود إليك يا «سعيدة» وسأعرف كيف أؤدب الخونة ... وتذكرت «نور» ... أيها الأحمق الذي باع شرفه ودينه ، وداس على قداسة الأخوة ، وحبس نفسه في إطار ضيق من الزمان والمكان والمطامع الأنانية ... سأتزوجك يا سعيدة ... وسنذهب إلى قبائل « الإيبو » ونزور أهلك ، وندعوا للإسلام من جديد ، ونغني الأغنية الجميلة التي كثيرًا ما كان يترنم بها عبد الرحيم ... وسأقود قوافل الأغنام إلى الجنوب ... نتاجر وندعوا إلى الله ، ونعلم المؤمنين آيات من القرآن ... وتذكرت شيخي فعدت إليه مهرولًا ...

وجدته مغمض العينين ، والدموع تنسكب من بيد أهدابه ، ويحرك رأسه يمنة ويسرة ، ويردد اسم «الله» ، وهتفت في فرح : «مولاي ...»

أشار بيده أن أجلس ، وأردد معه لفظ الجلالة ، فقلت : «سقط

الظالمون ...»

نظر إلي بعينين هانئتين وقال : « ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ صدق الله العظيم ...»

– « قبضوا على ايرونسى ...»

– « القصة قديمة ...»

– « كيف؟؟ »

– « وأورثكم أرضهم وديارهم ...»

– « والعملاء من الإيبو واليوروبا والإنجليز والمنحرفين من الشمال ، يفرون في كل اتجاه ... وسنعود إلى الحياة من جديد يا مولانا ...»

– « المؤمن لا يعرف شيئًا اسمه الموت ... والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون الجسد يسكن لفترة ، ثم يذهب إلى الدار الثانية ... وهناك نعيم مقيم أو شقاء دائم ، أو عقوبات مؤقتة تطهر المذنبين ، وتردهم إلى الرحمة الإلهية نادمين تائبين معافين ...»

كان اليوم مليئًا بالمفاجآت ، وكذلك الأيام التالية ، لم نكن نعرف في هذه الفترة للنوم سبيلًا إلا في أوقات قليلة ، وتحول مجرمو الأمس الذين سجنوا في هذا الجب إلى أبطال وفدائيين ، وأقرباؤنا أخذوا يتدفقون على السجن من كل جانب ، لكن الأسوار كانت تحجبهم عنا ، غير أن بعضنا كان يصعد إلى أعلى ويلوح لهم سعيدًا ويؤكد قائلًا : « نحن بخير ... اطمئنوا ...»

وطول هذه الفترة لم يكف شيخي عن التسبيح والحمد لله ، وكان يقول من آن لآخر : « أصبحت المسئولية أضخم ... كلما ازددتم قربًا إلى الله ، ازدادت ثقتكم بالنصر الأعظم ...»

قيل له : « وما النصر الأعظم يا مولانا »

قال – « أن ترفرف راية الحق في كل مكان ، وأن تعلو كلمة الله ... فتحكم علاقات البشر أجمعين ...»

وتساءل الجميع عن القائد الثائر ، وعدت لشيخي أقول له : « هل

تعرف يعقوب جوون؟؟ »

- « أحد أبناء قبيلتنا ... إنه من الهوسا ...»

- «لكنه نصراني ...»

- «لعل في ذلك حكمة يعلمها الله ... إنه نصراني آباؤه مسلمون ... تنصر في ظروف تعسة ... أراد الله أن يذوق حلفاء الإرساليات التبشيرية والصهيونية العذاب والقصاص على يد رجال ليسوا مسلمين حتى لا يلصقوا بنا تهمة التعصب ...»

« أي عثمان ... أي قائد كانت هويته ودينه لا يمكن أن ينتصر إلا إذا آزرته أمته ... الشمال مسلمون ... وقد وجدوا ولدًا من أولادهم يناجز الطغاة ... لن ينتصر يعقوب جوون إلا بمعاونة عمالقة الشمال المسلمين ... والقصة لم تنته بعد ...»

وكان الانتقام أكبر فيما بعد في مدينة «كانو» في الشمال، إذ سيق المتعصبون من الإيبو وعملاء الإرساليات التبشيرية والصهيونية إلى ساحة الموت، والرعب يكاد يقتلهم، وأريقت دماء كثيرة ... لكم يؤلمني أن تسيل الدماء مرة أخرى، وتضيع دم الشهيد العظيم أحمدو بيللو هدرًا؟؟؟

أمن العدالة أن يترك القتلة الذين اختطفوا الضباط الأبرياء واغتالوهم غدرًا؟؟؟

أيصح أن يعفى عن الجلادين الذين قتلوا ومثلوا وسجنوا الشرفاء الأطهار من أبناء الأمة في لحظة من لحظات العمالة والجهل؟؟

وفتحت أبواب السجن الكبير ...

وخرجنا إلى الحرية ... كان شيخنا عبد الله يمضي في المقدمة ... وما أن خرج إلى الشارع، حتى سجد على الأرض لله شكرًا، ورأيت الحشد الكبير يتبعه فيما فعل ... واستقبلنا عند خروجنا الأغر، الأغاني والأهازيج الشعبية، ووجدنا عددًا من رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وشعاراتهم الجميلة تزحم الطريق وحمل شيخنا إلى جواد أبلج والطبول تدق من حوله ... الأجسام الفارعة السوداء ترقص في

سعادة، والتواشيح الدينية يتردد صداها في الآفاق ... لشد ما تغير وجه البلاد في أيام معدودة، ولاحظنا ونحن بعيدين عن السجن أن سيارات مقفلة تسوق أعوان الظلم إلى نفس المكان الذي كنا فيه ... سبحانك يا ربي ... ونظر الناس إلى الحدث الكبير نظرة معينة، فالحكام الطغاة الدمويون قد سقطوا ... وهذا شيء رائع، والقيود قد فكت، وانطلق رجال الدعوة الإسلامية يتكلمون في حرية ... كان يعقوب جوون ابنًا بارًا للهوسا المسلمة، على الرغم من أن الظروف قد جعلت منه معتنقًا للديانة المسيحية ... لقد كان ولاؤه لشعبه أكثر من ولائه لدينه ... وماذا يريد الدعاة المسلمون؟؟

إنهم يريدون جوًا من الحرية الحقة لكي يقولوا كلمتهم ... ولا يريدون حاكمًا يرغم الناس على اعتناق عقيدة ما بالإكراه ... ولقد بدا أن الحرية قد تحققت وهذا في حد ذاته نصر كبير لرجال العقيدة المؤمنين ...

وما أن استتبت الأمور حتى أتى القائد الجديد إلى بيت شيخنا، كانت مفاجأة سارة للجميع ... انحنى أمام شيخنا في أدب وقال: «جئت مهنئًا ...»

– «أهلًا بك ...»

وعاد القائد يقول: «أردت أن اقول إنني ما جئت إلا لجمع شمل نيجيريا كلها، ولرد اعتبار «الهوسا» وتحريرها من القهر الظالم الواقع عليها ... أريد الحرية والوحدة والسعادة للجميع ... هذا هو دوري الذي أريد أن أؤديه حقيقة ... وعليكم أنتم أن تضيئوا الطريق ... كل حسب أسلوبه لتصل الأمة إلى آمالها المرتقبة ...»

ولم يقل شيخي سوى كلمة واحدة جامعة: «كن مع الله يا يعقوب»

ومشيت في المدينة أنظر إلى بيوتها وحوانيتها ومساجدها وكنائسها، وأتملى الناس في الشوارع في لهفة غريبة، وكأني مخلوق عائد من كوكب آخر، لكل شيء مذاق حلو تستشعره روحي ... حتى الأغنام والجمال والجياد والحمير بدت لي مخلوقات لطيفة

روحي تحلق في كل الأنحاء ... وتسموا إلى السحب ، وتتسلل داخل البيوت تعانق الشيوخ والأطفال ... وكل الكائنات ...

أية شفافية غريبة أهيم في رحابها برغم العنف الذي يمارس شريعة القصاص ...

وقال عبد الرحيم : «ألا تعلم أنه في المستشفي؟؟ لقد كادوا يقتلونه ...»

– «من؟؟»

– «نور ...»

– «لا تذكر اسمه أمامي ...»

– «لقد اصطاده العامة في الشارع ... كان يجري هنا وهنك وهم يطاردونه ... إنني أتصوره بعوده الفارع ونظراته الزائغة ... والرعب يسيطر عليه ... مأساة مجسمة للإنسان الضائع ... ثم سقط إعياء بعد أن جرى طويلًا ... داسته الأقدام ... انهالت عليه الأحجار ... التقطته سيارة الشرطة وانتزعته من بيد أيدي الناس ... وذهب ... إلى المستشفى وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة ... ولا أعلم مصيره حتى الآن»

في ماضي الأيام أحببت نور ، كنت أعرف بعض نقائصه ، وأدرك استتاره ، وكنت آمل أن تصلح أحواله ، وخاصة إذا ما وجد العمل الذي يسد حاجته ، ظننت أنه باللين والعطف والمناقشة الهادئة أستطيع أن أسكب في قلبه قطرات من الإيمان ، فالمؤمن يجابه الحياة بصبر وإرادة وتوكل على الله ... لكنه استعصى علي ، من يصدق أن قبيلة الإيبو تؤثر فيها كلماتي ، وتتحول إلى دين الله ، في الوقت الذي أستعصى علي فيه أن أرد اليقين إلى قلب صديق مسلم؟؟

وقال عبد الرحيم : «إنه مسكين ، لن يواسيه أحد»

– «هو الذي قطع كل رابطة له بالناس الشرفاء»

– «إنها سقطة ...»

– «فليدفع ثمنها ...»

- «أرى أن نعوده في المستشفى يا عثمان ...»
- «أجد صعوبة في ذلك ...»
- «لكنك رجل مؤمن، وتعرف ثواب الصفح عن الخاطئين ...»

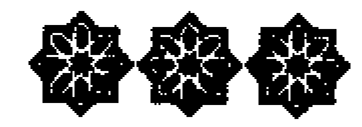
ووجدتني أتذكر أيامي الماضية معه، والعنت الذي لقيته سعيدة منه، وسقوطه في شرك الأعداء، واحتشدت كل هذه الذكريات في رأسي فهتفت: «مستحيل ...»

أمسك عبد الرحيم بيدي وقال: «أنا أعرفك ... إن قلبك طيب ... هيا بنا ...»

وسرت معه إلى إحدى المستشفيات التبشيرية، لشد ما أكره الذهاب إلى مثل هذه المستشفيات لما فيها من تعصب مقيت، وإهمال للمسلمين، واستغلال بشع لحاجات المرضى، والمتألمين، وبلغنا المستشفى فأخبرنا الكاتب المختص بتسجيل المرضى أن حالة نور قد تحسنت، وأنه أخذ إلى مستشفى السجن ليكمل علاجه هناك، وقد سمع أنهم سوف يقدمونه للمحاكمة بعد شفائه.

قلت وأنا أعود إلى الشارع:

- «ترى هل سيجد من يدافع عنه؟؟»



الفصل ١٨

وذهبت إلى «زاريا» بحثًا عن «سعيدة»، كنت وحدي في الطريق إليها، قلبي يشدني إلى الأرض الطيبة التي تدب عليها، كلما مرت الأيام، بل الساعات، أحسست أنني أحبها أكثر فأكثر، وأخذ قلبي يرسم لها صورة بديعة مشرقة، إن ضغوط الآلام التي تعرضت لها، والعناء الذي قاست منه لا شك وشح جمالها الفطري، ووجهها الأسمر بمسحة خفيفة من الحزن المقدس، وعندما يضمنا اللقاء في اللحظات الهانئة، فلسوف تمحى الآلام والأشجان، وعندئذ نستشعر مذاق السعادة مضاعفًا، أترى يستطيع قلبي أن يحتمل هذه السعادة كلها؟؟

وأنا مسافر جوال، أعرف البلاد، وكثيرًا من السكان، وأنا أدرى بمكامن الثروة، وأسواق التجارة، وأماكن اللهو، ودور العبادة، وطبائع القبائل، وضجيج السياسة، قلما أضل الطريق، أو أسقط بين براثن الحيرة، أشعر أن كل بقعة في نيجيريا هي مسقط رأسي، لا فرق عندي بين «زاريا» و «كانوا» و «لاجوس» و «اينوغو»... وقصدت لتوى مركز «الشرطة»، كنت أبحث عن «سعيدة» أعني «جاماكا»... عملاق من الشمال يبحث عن فتاة من الإيبو، لا شك أن الضابط قد ظن أنني سوف أشرب من دمها، لذا همس في شك: «لماذا تريدها؟؟»

– «هي خطيبتي ...»

ابتسم في دهشة وقال: «صدقني... أصبحت أشك في كلام الناس، والدنيا لا تثبت على حال، إن العالم من حولك يموج بالأحداث ...»

كنت قد شرحت له باختصار كل ما يتعلق بها، وإنها كانت متهمة

في قضية سرقة مزيفة، وإنها ... وإنها ... وهز الضابط رأسه وقال: «لقد سلمناها للأسرة التي كانت تقيم في كنفها»

وأعطاني اسم الشارع ورقم البيت، وسرت في الطريق في انتظار اللحظات الحلوة، وكلما اقتربت من البيت شعرت بما يشبه الدوار، تضاءلت شجاعتي، وتداخلت الصور القديمة والحديثة، وأصبحت لا أجد كلمة محددة مناسبة أستطيع أن أقولها لها ...

قال لي حارس القصر: «كانت فتاة طيبة، على الرغم مما سببت لنا من مشاكل»

– «ماذا تعني؟؟»

دق قلبي من الخوف، لكني سمعته يقول: «لقد رحلت!»

– «متي؟؟»

– «الأمس»

– «ألا تدري إلى أين؟؟»

– «يبدو أنها اتجهت إلى سوكوتا ... ومع ذلك فلسوف أتأكد من ذلك بنفسي ... إن سيدة القصر تعرف عنها كل شيء ... والحقيقة إنها بكت كثيرًا عندما قررت «سعيدة» الرحيل ...»

– «أرجوك ... بسرعة ...»

قال الحارس وهو يتجه صوب الداخل: «يجب أن تقلق عليها ... فالبلاد هائجة مائجة، وسعيدة مسكينة تعرضت لآلام ومضايقات شتى».

وجلست أنتظر أمام القصر، تحت الأشجار الخضراء، والطيور تبعث بأصوات متقطعة يائسة، ورائحة الزهور ذات الأريج الحلو تلامس أنفي بأنامل سحرية حلوة، وحان العصر، والسماء رائقة

زرقاء تبعث علي الأمل والصفاء ... والمواطنون من أبناء أمتي يمضون في الطريق الواسع باسمين، والأطفال يجرون ويمرحون، سيل الحياة يتدفق دائمًا دونما انقطاع، وشعرت بعاطفة قوية نحو الأطفال الذين يمرحون، لكم أحبهم ...

– «نعم ... ذهبت إلى سوكوتا ... هذا ما أكدته سيدة القصر ... وهي ترحب بك لكي تستريح، وتتناول الطعام ...»

هذا ما قاله الحارس، فصافحته شاكرًا، وانطلقت عائدًا من حيث أتيت، ترى أين ذهبت؟؟ بالطبع لن تعود إلى المستشفي التبشيري الذي ظلمها وأساء إليها، الاحتمال الأكبر أن تكون قد قصدت بيت شيخي «عبد الله»، أم تراها ذهبت إلى بيتي؟؟

ولم أصل إلى «سوكوتا» إلا في وقت متأخر، عانيت الكثير من الإرهاق، ومع ذلك فقد كنت أصدق هواجسي في احتمال لقائها بمنزلي، وأشعر بجسدي تنتابه قشعريرة غريبة ... لكن ليس لديها مفتاح ... أجل ... ومع ذلك ففي إمكانها أن تتسلق السور، تمامًا كما كانت تتسلق الأشجار في أحضان الغابات الكثيفة، وفتحت البيت وأنا أتصنع السعال، سوف تشرق بوجهها الجميل في ساحة البيت، لكني أنظر في كل اتجاه فلا أجد لها ريحًا، ضاع الحلم الجميل الذي ظل يداعب خيالي طوال الطريق، ومع ذلك فقد كنت – حتى آخر لحظة – أتوقع أن تثب أمامي من مخبأ ما، وتفاجئني، آه ... البيت خاو لا حس فيه ولا نفس ... لشد ما أصبحت أشعر بملل قاتل في هذا البيت الرحب الذي لا يسكنه إنسان غيري !!

كيف تحملت الحياة وحدي طوال هذه السنوات؟؟

ولم أستطع أن أقاوم النوم ...

وتوجهت في الصباح إلى بيت شيخي الذي كان يعج بالأتباع والأشياع، والأحاديث الجذابة حول شئون الدنيا والدين تسيطر على المجلس، واقتربت من شيخي هامسًا: «ألم تأت إليكم سعيدة؟؟»

ابتسم شيخي في رضى وقال: «الأفراح الحقة تعمر قلوب الأتقياء ...»

- «أجل ...»

- «وسعيدة لم تأت إلينا ...»

دارت بي الأرض، هذا آخر ما كنت أتوقعه، أين ذهبت إذن ؟ لا شك أنها تعرف ما يجري في البلاد من أحداث، وتستطيع أن تخمن أنني قد خرجت من السجن، وإننا قاب قوسين أو أدنى من السعادة التي نحلم بها ... يا إلهي !! أين أتجه ...

- «شيخي ... إنني أشعر بقلق بالغ، فقد بحثت عنها في زاريا ... وفي مقر الشرطة ... وفي البيت الذي كانت تخدم فيه ...»

أغمض شيخي عينيه مفكرًا وقال: «عجيب هذا الأمر ...»

- «أخاف أن تكون يد قد امتدت إليها بالانتقام في هذه الأيام الرهيبة ...»

- «أشك في ذلك يا عثمان .... فالناس هنا يعرفون قصتها ...»

- «ما الحل؟؟؟»

قال شيخي وهو يشير بأصبع الإبهام: «السر هناك ...»

- «أين؟؟»

- «في المستشفى الذي كانت تعمل فيه ...»

في طريقي إلى المستشفى كنت أسأل من أعرف، سواه في القسم القديم من المدينة أو القسم الجديد، وسألت الكثيرين من أصدقائي المنتمين للايبو والذين يشغلون مناصب عدة، لكن لا أثر ولا خبر ....

وأخيرًا بلغت المستشفى ... الجميع يغلقون أفواههم عند سؤالي، لا شك أنهم يعرفون ولا يريدون أن يخبروني عن شيء، ودخلت ثائرًا غرفة الطبيب «هانيمان»

- «أين جاماكا؟؟»

ابتسم في برود وقال: «لقد رحلت منذ فترة طويلة»

قلت وأنا أسدد إليه نظرات غاضبة لا ترحم: «أنت تعرف ...»

أشعل سيجارة وقال : «حسنًا لقد عاد الطائر إلى عشه ...»

وتبادر إلى ذهني على الفور إنها ربما تكون قد عادت إلى دينها ومقر عملها ، ولعلهم أخذوها إلى مستشفى آخر ، ولم أكن أجد تفسيرًا لهذا إن صح أنه صحيح ، واقتربت من الطبيب قائلًا في لهجة حاسمة : « أين هي؟؟ »

تنهد في راحة، ونفذ دخان سيجارته وقال : «جاء أهلها واصطحبوها إلى الشرق ...»

صرخت في جنون وأنا أمسك بيده في جفوة : « أنت تعرف إنهم من المتنصرين ... وقد ساءهم ما حدث منها ، وهذا شيء لا دخل لنا فيه »

– « لابد إنهم اختطفوها ...»

– « هذا شيء لا يخصني ...»

قلت والدموع تكاد تطفر من عين : «لو كانت وراء السحب لطرت إليها ...»

– « هذا شأنك يا عزيزي ... غير أني أؤكد لك – كصديق – إن الطريق محفوف بالأهوال ...»

وعدت وحدي إلى الطريق ، كل شيء ينبض بالحزن والأسى ، القلق الحارق يعبث بروحي ، ويفقدني الرغبة في أن أنام أو آكل أو استقر في مكان ، أكاد اختنق من شدة الضيق ، لا أستطيع أن أصعد أنفاسي إلا بصعوبة بالغة ، يا إلهي ماذا أفعل؟

قال شيخي وقد أخبرته بكل شيء : «لقد أراد الله يا عثمان أن تشد رحالك إلى أقاليم الإيبو مرة ثانية ... خذ أغنامك ... واتجه صوب « لاجوس » ... ومنها أخترق الغابات صوب الشرق ... وهناك ستلتقي بإخوة أحباء... وسوف يهتدي على يديك خلق كثير ... وستجدها هناك ...»

قلت وأنا ارتجف : «كنت سأذهب ، لكن ألا تعتقد أن أهلها قد يفكرون في قتلي؟؟ »

- « وقد تنجاب عن أعينهم غشاوة الجهل والكفر ...»
- « اذهب؟؟ »
- «هذا نداء الله يا عثمان ... سوف يصحبك الله في الحل والترحال ... وخذ معك عبد الرحيم ... واعلم أن إخوة لك قد سبقوك إلى هناك منذ قلم الله أظافر ايرونسي والمتمردين ... إخوتك يا عثمان الآن منتشرون في المناجم ... حيث يسكن الإيبو في الشرق ، واليوروبا في الغرب ...

إن أيدي المؤمنين تدق أبواب الشر صباح مساء .... اذهب ... وتوكل على الله ...... لعل فيما حدث خير كثير ...»

ما هي إلا أيام قلائل وأشد الرحال ، أنا أعرف الطريق جيدًا ، لم عد أحتمل البقاء في سوكوتا ، أنتقل فيها بين الأضرحة والمساجد ومجالس العلم والعبادة ، أشعر دائمًا أن عبادتي لا تكمل إلا بالسير والحركة ودعوة الشاردين إلى الطريق الخالد ... وسأظل طوال الطريق أنتظر لقاءها ... فلقد أحببتها من كل قلبي ...

❁❁❁

الفصل ١٩

الأرض كلها مزروعة بالفتن، ملغمة بالمؤامرات، أشعر بذلك وأنا أمضي في رحلتي الطويلة من الشمال قاصدًا لاجوس، ومخترقًا الغابات في الوسط والشرق، كنت صادقًا مع نفسي ومع رفيق السفر عبد الرحيم، أبديت له مخاوفي، إن سقوط ايرونسي والانتقام من بطانته، وأخذ الخائنين من الإيبو بالعقاب، كان مجالًا رحبًا للكنائس الاستعمارية والصهيونية، الذين كانوا يرقصون بالأمس في شوارع لاجوس فرحًا باستشهاد أحمدو بيللو، وابتهاجًا بمصرع وكيله في الحزب، «أبو بكر تفاوة» - وقد كان رئيسًا لوزراء حكومة نيجيريا الاتحادية، هؤلاء الذين رقصوا بالأمس أراهم اليوم يكظمون غيظهم، ويجيلون نظراتهم الحاقدة في كل اتجاه، وكأنهم ينتظرون ساعة معينة لينفثوا عن غيظهم وحقدهم، وعلمنا أن كثيرين من المسيحيين أنفسهم قد قضي عليهم، انتقامًا منهم بسبب تأييدهم القديم لأحمدو بيللو، لم يترك ايرونسي وعصابته أحدًا دون عقاب، سواء أكان مسلمًا أو مسيحيًا، ومن الهوسا أو الإيبو أو اليوروبا، كانوا - قبل أن ينقض عليهم يعقوب جوون - يخططون لفلسفة متعصبة عميلة، تحركها أيد خفية، لكن ذلك كله قد سقط بانتصار الثورة في الشمال، وبروز الهوسا، وهم الأغلبية المسلمة الساحقة في كل نيجيريا إلى حيز السلطة والتنفيذ... وكان أمل الأعداء مركزًا على الحاكم العسكري للأقليم الشرقي وهو الضابط «أوجو» الذي دب في الفترة الأخيرة على مهاجمة الشمال ويعقوب جوون في خطبه، وكان يعقوب يحاول جاهدًا أن يوضح له الأمر، ويدعوه إلى الكف عن إثارة الحزازات

والفتن ، حفاظًا على وحدة كيان الدولة ، وأعطته الحكومة الجديدة فرصة التنمية ، والنهوض بالشعب اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا ... وأخذنا - أنا وعبد الرحيم ومعنا خادم عجوز - ننتقل من مكان إلى مكان ندعو إلى الله ، لم تكن المهمة في هذه المرة سهلة ، فقد كنا أحيانًا نقيم شهرًا بين قبيلة من القبائل دون أن يهدى الله على أيدينا أحدًا ، وأحيانًا أخرى كنا نلتقي ببضعة رجال في الطريق ، سرعان ما يعتنقون الإسلام ، ويتركون وثنيتهم في فرح واقتناع ، وبعض رؤساء القرى كانوا يرفضون استقبالنا ويطلبون منا الرحيل فورًا ، وفي كل مرة - سواء في حالة النجاح أو الفشل - حرصنا أن تتسم تصرفاتنا بالنبل والصبر واللياقة ، شأن الدعاة الواعين الفاهمين لكل ما يعترض الطريق من عقبات ...

وبعد شهرين ونصف على وجه التقريب استطعنا أن نبلغ المكان الذي تعيش فيه قبيلة «جاماكا» ، وكنت مدركًا تمامًا لدقة الموقف وحرجه ، قال عبد الرحيم وهو يمسح المكان بنظراته الحادة : «هذه بقعة جميلة لا يأسف المرء أن يدفن فيها ...»

وضحكنا ، كان عبد الرحيم مقتنعًا أن مجيئنا هنا مغامرة غير مأمونة العواقب ، وخاصة أن أهل «جاماكا» قد تنصروا منذ عدة أعوام ، وهو يعتقد أن الذين تركوا الوثنية واعتنقوا دينًا جديدًا قد يكونون أشد عنفًا واستمساكًا بعقيدتهم الحديثة من الوثنيين أنفسهم ، وقلت لعبد الرحيم : «أتخاف الموت؟؟»

- «على الأقل يجب ألا أسعى إليه»

- «رسالتنا هي الحياة ... جئنا لنرسم صورة جديدة للحياة تليق بالإنسان ...»

ضحك عبد الرحيم وقال : «لو يعلم الناس ذلك منذ البداية لما تكبدنا المشاق ...»

- «لا تخف ...»

- «وكيف لا أخاف؟؟؟ أن يقتلونا هنا بطريقة مزعجة... وقد يختطف الوثنيين لحومنا... لا شك أن طعمك لذيذ ...»

أقشعر بدني، وتصورت الوليمة الوثنية الصاخبة والنار والدماء، والأفواه الجائعة، والتراتيل الوحشية، والطبول المجنونة، فاستبد بي ألم فظيع: «عبد الرحيم... أرجوك... لا تعد هذا على مسمعي مرة ثانية، أنني أشعر باشمئزاز بالغ، وسمعت خادمنا العجوز الذي وقف مشدوهًا مرتعدًا يقول: »

- «ما كان يجب أن أتى معكم ...»

قال عبد الرحيم له بطريقته المرحة وهو يربت على كتفه: «اطمئن... فلن يكون لحمك طيب المذاق... ولم يبق لك من العمر إلا أقله حسبما أعتقد، فلن تخسر كثيرًا ...»

ومضى الليل إلا أقله ونحن نتدارس الأمر، ونعد العدة للغد، كان رأي عبد الرحيم ألا ندخل البلدة في الغد، ففي التريث بركة، وكان من رأيه أيضًا ألا نظهر هويتنا الحقيقية في البداية، حتى ينجلي الموقف، وتتضح الحقائق كاملة، واقترح عبد الرحيم أن نرسل الخادم كي يتقصى لنا الأمور، ويحاول جاهدًا الاتصال بجاماكا، لأنها لو علمت بوجودنا، فقد تقدم لنا بعض التوجيهات الضرورية، واقتنعت على الفور بهذه الأفكار الواعية الحذرة، وتحدثت مع الخادم العجوز، الذي أبدى خوفًا شديدًا وقال: «تريدون أن تجعلوا مني كبش الفداء؟؟»

- «كلا ... لكنك ستدخل البلدة في زى متسول مريض ...»

- «لن أفعل... لقد جئت لخدمتكم بأجر محدد، وعملي هو الآخر محدد... ولن أشارك في العمل الآخر الذي جئتم من أجله ...»

وبكى العجوز، وأخذ يقول بصوت متحشرج: «ألا ترحمون شيخوختي... أنا إنسان ضعيف مسكين ...»

- «ولهذا اخترناك... شيخوختك وضعفك سيحميانك ...»

قال وهو يلوح بيده: «مستحيل... مستحيل... وسوف أرجع من حيث أتيت، ولست بحاجة إلى بقية أجري، إنني أفضل الموت جوعًا،

أو تنهشني الضباع من أن يلتهم لحمي هؤلاء الوثنيون ...»

وجلسنا حائرين يلفنا الصمت العميق المحير، جاماكا على بعد خطوات، وأنا أتلهف شوقًا لرؤياها، والتمتع بحديثها، أريد أن أعرف ماذا جرى لها، وأريد أن نبدأ حياتنا معًا كزوجين سعيدين، ونعلن على الملأ قصة الإيمان العظيم الذي انبثق من الجزيرة العربية وانطلق نوره الفياض في كل أنحاء الدنيا، ورسم أبهج صورة للدنيا والآخرة، وعلاقات البشر قاطبة ... كنت غارقًا في عديد من الأفكار، وإذ بي أرى عبد الرحيم يغيب لبضع دقائق ثم يعود بعد ذلك مرتديًا زيًا غريبًا بعض الشيء.

– «ما هذا؟؟ إنك تبدو كمواطني تشاد»

– «بالضبط ... هذا ما قصدته ... ثم انتظر ...»

ورأيته قد علق ساعده الأيسر في رقبته، وأحكم رباطه بلفافات عديدة من الشاش، كان منظره يدعو إلى العجب ... وقال عبد الرحيم باسمًا: «أنا أكره الخداع ... لكني أعشق التمثيل ... وأظنه ليس حرامًا ... على أية حال فالحرب خدعة ... سأذهب إلى قبيلة جاماكا بنفسي ... سأقول لهم أني متسول غريب قادم من تشاد ... وإنني على دراية كبيرة بالسحر ... وقراءة الغيب ...»

ضربت بكفي قائلًا: «من أتى عرافًا فقد كفر ...»

– «هم كفرة بطبيعة الحال ... ومع ذلك فأنا لا أجد وسيلة أخرى، أخترق بها سياج العزلة هنا، وأتعرف على البيئة التي نتحرك فيها ... هيه ... ماذا قلت؟؟»

طأطأت رأسي وهمست: «على بركة الله ... إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى».

لم يعد إلينا عبد الرحيم بعد أن رحل في الفجر إلا بعد يومين، تناوبتني خلالهما الشكوك والهواجس، وعرفت منه فيما بعد أنه دخل القرية بطريقة هادئة لا تلفت النظر، ومضى في طرقاتها ينادي بصوته الجهوري: «عابر سبيل ... يطلب الإحسان ...

تاجر صغير ... دهمني اللصوص وأخذوا مالي وكسروا ذراعي الرحمة يا أهل الرحمة ...»

واستطاع خلال نصف النهار الأول أن يتجول في أنحاء البلدة ويعرف الكثير عنها ، وكم كانت دهشته عندما علم أن أهلها وأميرها ما زالوا على ديانتهم الوثنية، وأن فئة قليلة جدًا قد اعتنقت النصرانية ، ولهم معبد صغير ، يقع بجوار المستوصف المتواضع ، والغريب أنه وجد بضعة نفر مسلمين يؤدون الصلاة في مصلى جانبي مهمل في الجانب الآخر من القرية ...

وبعد الظهر توجه « عبد الرحيم » صوب المستوصف الصغير ، كان يبدو هادئًا لا أحد من المرضى أمامه، وهو مكون من غرفتين صغيرتين ، وجدرانه مصبوغة بالجص الأبيض ، يرفرف من فوقه علم نيجيريا وراية عليها صليب، وتمثال للعذراء مقام في الساحة الأمامية ، واقترب عبد الرحيم من باب المستوصف ، فاستقبلته فتاة صغيرة ترتدي زى الممرضات المميز ، وعلى صدرها تطريز لصليب واضح كبير ...

- «ما الذي أتى بك من تشاد؟؟»

- «قدري ...»

واقتربت منه وأمسكت بذراعه قائلة : «هل كسرت عظامك؟؟»

صاح عبد الرحيم في رعب : «بالله لا تلمسينى ... الألم يكاد يقتلني ...»

- « لا تخف سأعطيك دواء مخدرًا ...»

- « لا أريد ...»

- «لماذا أتيت إذا ...»

- « لأستريح بعض الوقت ...»

وصاحت فتاة في الداخل : «ماذا هناك؟؟ ما هذه الضجة ...»

وسمع عبد الرحيم الممرضة تردد قائلة : «مريض يرفض العلاج أيتها الأخت جاماكا ...»

وذهل عبد الرحيم عند سماعه اسمها، وقف مسمرًا في مكانه، فكر بسرعة ماذا يفعل؟؟

ورآها قادمة... كانت تتفحصه بإمعان وابتسم عبد الرحيم لرؤياها...

– «من أنت؟؟»

– «جائع ظامئ...»

التفتت «جاماكا» إلى زمليتها قائلة: «اذهبي واحضري له شطيرة وكوبًا من عصر الفواكة، يبدو أن الجرح قد سبب له صدمة...»

وحينما انصرفت الممرضة، أمسك عبد الرحيم بيدها وهو يتلفت يمنة ويسرة، ويقول بصوت هامس: «سعيدة... إنه هنا...»

قالت وقد بدت الدهشة على وجهها: «سعيدة؟؟ من أنت؟؟»

– «عثمان أمين... هناك... على حافة الغابة... عند المنحدر الشمالي... ينتظر على أحر من الجمر...»

قالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع...

– «هل جاء؟؟»

– «نعم... حفيت أقدامنا بحثًا عك...»

كادت تسقط إعياء، لكن عبد الرحيم عاجلها قائلًا: «يجب ألا يعلم أحد شيئًا... تصرفي بطريقة عادية...»

سرعان ما تماسكت، ثم قالت: «ستبقي هنا الليلة... مفهوم... سترحل زميلتي إلى بيتها... ولن يكون معي سوى الحارس الذي يقف خارج المبني... سأدخلك كي تستريح وتضمد الجراح...»

وقال لي عبد الرحيم بعد ذلك:

– «وعلمت من «جاماكا» كل شيء بتفاصيله، شرحت لي كيف أن الذين اختطفوها ليسوا أهلها، وإنما عصابة كان يوجهها «هانيمان» لقد التقطوها من «زاريا»، ثم حقنوها بعقار مخدر ووضعوها في غرفة لإسعاف الجرحى، ثم أتوا بها إلى هنا،

وسلموها إلى أهلها الذين كانوا في غاية الغضب بسبب اعتناقها الإسلام ، وكم كانت دهشتي عندما علمت أنها ما زالت على إسلامها ، وإنها تدعو إليه خفية بين بنات جنسها حتى أن فتيات كثيرات قد تبعتها سرًا وهي ترفض الذهاب إلى الكنيسة برغم تهديد أهلها وعنفهم معها ، واتفقت معي على أنها سوف تأتي بنفسها لتوضيح كل شيء أمام عثمان ... أمامك أنت ...»

ووقفت أنتظر اللحظات الموعودة التي طال ترقبي لها ، إنها لحظات قصيرة ، لكنها ضخمة ضخامة العمر بما يهدر فيه من انفعالات وأشواق عارمة ... الحب الحقيقي يهب الإنسان طاقة هائلة تسخر من الخوف ، ولا تكترث للمخاطر ... وحينما رأيتها تقدم تحت ستار الليل ، والقمر يسطع في الأفق الصافي امتلئ يفيض من الأفراح لا يمكنني وصفها أو التعبير عنها ... تراءت النجوم ... وأشباح الأشجار ... والتلال ... وفروع الأنهار الصغيرة ... كأنها تغنى وسط سيمفونية ... لا مثيل لها ، وخيل إلي أني أسمع عبد الرحيم يترنم بأغنية الإيبو البارعة الفاتنة ... وكان الصمت أبلغ من كل كلام ......

ولم ندر أطال الوقت أم قصر ، لكن «جاماكا» أعني سعيدة انتفضت واقفة فجأة ، فقلت : «ماذا جرى؟؟»

قالت : «ألا تسمع دقات الطبل؟؟»

– «لا أفهم ...»

– «هذه الدقات معناها الاستغاثة أو النجدة ...»

– «لماذا؟؟»

وبقيت جاماكا صامتة ترتعد .

– «بدا لي أنني رأيت أحدًا يتتبعني»

– «لعله الوهم والخوف ...»

ولم تكن تعلم أن الحارس قد تتبعها فعلًا ، ثم عاد إلى القرية يصيح ويقول : «جاماكا سرقها الغرباء ...»

لم تعرف ذلك على التو ، وقد اتضح كل شيء عندما رأينا عدد كبيرًا

من حملة الرماح يدهمون المكان، ويحيطون بنا من كل جانب، ووجدت «جاماكا» تخرج إليهم في شجاعة لا نظير لها، وتصيح بأعلى صوتها: «ما هذا الذي تفعلون؟؟ لقد أتيت لمعالجة مريض لم يستطع الوصول إلى المستوصف... أنزلوا رماحكم وعودوا من حيث أتيتم...»

كان الخادم العجوز يرتجف من الانفعال، وجسده كله ينتفض، وقدم بعض رجال الإيبو، ومعهم مصباح صغير، واقتربوا منا، واتجهت أبصارهم صوب العجوز الملقى على الأرض ينتحب ويبكي ويرتجف، وما أن رأوه على هذه الحال حتى انصرفوا في هدوء، وقال أحدهم وهو يهبط المنحدر: «جاماكا... نحن في انتظارك حتى تنتهي من مداواته...»

وحذرتني «جاماكا» وهي تزمع العودة قائلة: «ادخلوا البلدة ولا تخافوا... ادخلوها كتجار... وحذار أن يعلم أحد هويتكم في البداية... وسيبقى العجوز في المستوصف للعلاج.... وبهذا التقي بكم دائمًا كلما أتيتم لزيارته...»

وانصرفت... وكان قلبي يدق مع كل خطوة من خطواتها...

وحمل اثنان من رجال الإيبو الرجل العجوز، ووضعوه على محفة من أفرع الأشجار، وكان المسكين يصيح ويتململ ويرفض الذهاب، لكني زجرته وطمأنته...

فاستسلم لمصيره....



الفصل ٢٠

لم تكن رحلتنا تلك خالية من المنغصات، وهكذا الدنيا في يوم تبتسم لك وفي يوم آخر تكشر لك عن أنيابها، والمؤمن مطالب ألا يفرح بما آتاه، ولا ييأس على ما فاته، وأن يهئ نفسه للنجاح والفشل، والرضا والسخط، والشقاء والنعيم، ولم تفلح رقصات «عبد الرحيم» ولا أغنياته عن الإيبو أن تزيل جو الشكوك المحيط بنا تمامًا، وأخذنا نجتهد في التجارة إخفاء لنوايانا الطيبة، فكنا نخرج في رحلات قصيرة إلى القرية القريبة، ونعود ببعض الأغراض إلى قرية «جاماكا» التي اتخذنا منها مقرًا لنا، وكان يشرف على المستوصف قسيس غير متفرغ، بمعنى أنه يبقي في القرية يومين من كل أسبوع أحدهما يوم الأحد كي يؤدي المواعظ، ويقوم بالصلاة للفئة القليلة المتنصرة من أسرة «جاماكا» ويبدو أن «مارى» زميلة «جاماكا» في العمل لم تكن ترتاح لوجودنا، إذ كنت ألحظ الامتعاض على وجهها كلما رأتنا، وكان خادمنا العجوز تزداد حالته الصحية سوءًا، أليس هذا عجيبًا، لقد كان يمثل المرض، وإذ به يتحول إلى مريض فعلًا، لعل القدر أراد أن يمد في بقائنا أطول فترة ممكنة لشيء يعلمه الله، ومع ذلك فقد استطعنا أن ننجز بعض النجاح في القرى، إذ أسلم على أيدينا أكثر من ثلاثين رجلًا وامرأة، وكنت أتسلل إلى قراهم من وقت لآخر وأشرح لهم قواعد الدين الإسلامي، وتأدية الشعائر بالطريقة السليمة، كما طلبت منهم أن يتكتموا أمرنا حتى نرحل، إذ أن العداء بين «أوجوكو» حاكم الأقليم الشرقي، ويعقوب جوون قد استحكم في الأيام الأخيرة، وكرر «أوجوكو» نداءاته للايبو كي يعودوا من الأقليم

الشرقي ، وحدد موعدًا نهائيًا لعودتهم ، وأشيع أنه يفكر في الاستقلال بالأقليم الشرقي ويجعل منه جمهورية مستقلة ، والتقينا سرًا أنا وعبد الرحيم ، وجاماكا لنتدارس الوضع الذي نعاني منه ، وقلت : « ها نحن نعيش كالسجناء ...»

قال عبد الرحيم : «ولن نستطيع أن نبقي هكذا »

وقالت «جاماكا» وعيناها تبرمان في ثقة : «لابد من الحركة ...»

قلت : «ماذا تعنين؟؟ »

– « والنتيجة يا سعيدة؟؟ »

– «من شاء آمن ومن شاء كفر ...»

– « وأنت؟؟ »

– «سأتدبر الأمر وأرحل معكم خفية ... ما عدت أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك ...»

وبرغم الشكوك التي كانت تحوم حولنا ، فقد أنسى الكثيرون من أهل القرية إلى سلوكنا الطيب ، وتعاملنا النظيف ، وأخذت عبد الرحيم ومضيت إلى أمير البلدة ، لقد سبق والتقينا به تحت اسم التجار ، واستقبلنا الرجل استقبالاً طيبًا كعادته ، لم يكن معه سوى رجلين من عيون القرية ، وكان الجو إذن ينبى عن الهدوء

قلت له بعد أن جلسنا بضع دقائق : «يا أمير ... الصدق أمانة ، والكذب خيانة ...»

– « هو ذاك ...»

– « وقد جئنا نحمل إليك أعظم هدية في الوجود ...»

ابتسم الأمير ، وأضاءت الابتسامة وجهه الأسود وقال : «كل شيء عظيم ...»

- «كل شيء فناء أيها الأمير ...»
- « أعلم ...»
- « إلا ما يطهر الروح ، ويقربها من الله ...»
- «نحن نعبد الله من قديم ...»
- « هديتنا إليك ... كتاب الله ... هدية السماء للأرض ...»

وأخرجت مصحفًا جميلًا ، مكتوبًا بالعربية ، ومع علمي بأنه لا يستطيع قراءاته ، إلا أني قدمته إليه ...

- « ماذا فيه؟؟ »
- « سعادة الدنيا والآخرة »
- «ثم ماذا؟؟ »
- « وفيه ... الله واحد للبيض والسود ، والفقراء والأغنياء ، وفيه أن الإيمان واجب بجميع الرسالات الإلهية والرسل والأنبياء لا نفرق بين أحد من رسله ...»

هز رأسه ، ونظر إلينا في إمعان وقال : «وما هو حقه علينا؟؟ »

- «حقه أن تؤمنوا به ... وأن تحاربوا الفساد والظلم والخطيئة ...»

غمغم قائلًا : «وماذا تعني الخطيئة؟؟ »

- «لقد وضع الله نظامًا للحياة، ووضح علاقات البشر ، وحقوقهم وواجباتهم ... بأسلوب عادل لا مثيل له ، فمن خرج عليها فهو خاطيء ... إن حدود الخطأ والصواب قد وضعها الله ، ولم تترك لأهواء بشر ... البشر قد يجانبهم الصواب ، لكن الله جل وعلا لا يخطئ ، ولا يحيد عن الحق ... لأن اسمه الحق ...»

ابتسم الأمير وعلق : «كلماتك جميلة ... وما أكثر ما سمعت من

كلمات جميلة ... أيها أصدق؟؟ »

وثبت وجلست أمامه بين يديه وقلت : « صدق عقلك وقلبك... صدق التجربة الحية ...»

– «يا إلهي ... تعددت صور الحق كثيرًا ... جاءني أحد القساوسة منذ سنوات وكلمني كثيرًا عن ذلك ... لكني أعرف هؤلاء الأجانب ...»

أسرعت قائلًا : «لم نأت مستعمرين ولا طامعين ، ولم نحمل إليك مالًا وما وعدناك بتثبيت دعائم حكمك... نحن لا نحمل إلا دعوة الحق ... وهذا كل ما معنا ...»

ووضع يده على كتفي وقال : «من أنتم؟؟ »

– «مسلمون ... إخوة لكم قدمنا من الشمال ...»

وبدا شيء من الامتعاض على وجهه وقال : «لكنكم قتلتم الإيبو في الشمال ...»

– «لقد سبقوا بارتكاب القتل ... فوقع عليهم القصاص ... ومع ذلك ، فإن الأمر ليس قبليًا ... دعوة الله للجميع ... قد يكون الإيبو المسلم أحب وأقرب إلى الله من رجال الهوسا المسلمين ... والدين ينفر من العصبية ... الكل إخوة تحت لواء دعوة الله ...»

فكر الزعيم قليلًا ثم قال : «كلامك جميل ... وحينما أنظر إلى عينيك أقرأ فيهما الصدق والأمانة ... اتركا هذا الأمر فسأفكر فيه بإمعان ...»

ثم قال بعد فترة صمت : « إن كانت لكما حاجة قضيتها ...»

وثب عبد الرحيم في خفة وقال :

– « الأمان ...»

– « هذا لكما ...»

- «وأن تفتح أمامنا الطريق لنقول للناس كلمة الحق، ولن نكره أحدًا عليها ...»

- «قولا ما شئتما ...»

وخرجنا إلى الأسواق وأماكن التجمعات ندعو ونعلن، وفوجئت القرية بصورتنا الجديدة، ولجأ إلينا الإخوة المسلمون القدماء، في فرح غامر، وأخذوا ينقلون عنا كل شيء وخرجت النسوة المسلمات اللاتي أسلمن على يد «سعيدة» يغنين ويظهرن ابتهاجهن، ولم يمر الحدث بسهولة، فقد هاجت القرية وماجت، وعلا فيها الجدل والصياح، وأمسك والد «جاماكا» بابنته وحبسها في مكان بعيد عن الأنظار حتى لا تتصل بما أو بالناس، وأوجسنا خيفة من هذه التطورات الجديدة، وبينما نحن نفكر في الأمر إذ بزعيم القرية يدعونا بصفة عاجلة، وعندما التقينا بالأمير استقبلنا واقفًا، والاهتمام باد على وجهه وقال: «يجب أن ترحلوا بسرعة ...»

قلت بنبرات متلعثمة: «لماذا؟؟»

تلفت حواليه، ففهم من حوله أنه يريد الانفراد بنا فانصرفوا، وما أن أصبحنا وحدنا حتى قال: «لكي تنجو بحياتكم يجب أن ترحلوا على الفور ...»

- «لماذا؟؟»

- «الأمر لا يتعلق بكم خاصة ...»

- «ما معنى ذلك؟؟»

صرخ بأعلى صوته قائلًا: «أما سمعتم عن مذبحة «أونيتشا» ... إن شوارع البلدة منذ أمس قد امتلأت بجثث أبناء الهوسا المسلمين والقتل لا يكف ليل نهار ... لقد اشتعلت الفتنة ... وأوجوكو أعلن

الاستقلال ... وغدًا تقوم الحرب ... فروا بجلودكم ...
إنهم يبحثون عن الهوسا في كل مكان ... أتفهمون؟؟ المفروض أن أقتلكم الآن ...»

وأخذ يدق الحائط بيديه ويقول: «لا أستطيع ... لا أستطيع ... إنني لم أنس كلماتكم الطيبة بعد ... مثلكم لا يصح أن يقتلوا ...»

وعندما هممنا بالانصراف أشار قائلًا: «لا ترحلوا إلا في الليل ... واذهبوا مباشرة إلى قبائل «الكالابار» في الشرق ... الكالابار سوف يحمونكم ... لقد رفضوا المذابح ... الكالابار عندهم المكان الآمن لكم ...»

ثم أخذ يشرح لنا الطريق الآمن إلى قبائل الكالابار، وأخيرًا همس: «حذار أن يعلم أحد بما حدثتكم عنه»

وتوقفت لحظة، ثم قلت: «أليس في الإمكان أن اصحب «جاماكا» معي؟؟ لقد اتفقنا على الزواج ...»

ابتسم الزعيم في مرارة وقال: «لا تفكر في شيء آخر غير النجاة ... عندما تتوفر لك الحياة الآمنة ففي الإمكان تصحيح كل خطأ ... الموت لا يعطى فرصة لأي لون من ألوان التصحيح ... انصرفوا بهدوء ... وقد ألتقى بكم في يوم من الأيام ... من يدري؟؟ إن صدى كلماتكم الحلوة لم يزل يرن في قلبي، ويخالط فكري ... أنتم أناس طيبون ...»

وبلغنا موطن «الكالابار» بعد جهاد مرير، وتنفسنا الصعداء ونحن نلتقى بإخواننا اللاجئين من الهوسا إلى حمى «الكالابار» كانت الحرب قد استعرت بين الشرق بزعامة أوجوكو والحكومة الاتحادية ويمثلها يعقوب جوون، وسمعنا مئات القصص الرهيبة عن الذين ذبحوا غدرًا في مناطق الإيبو بالشرق، وكان واضحًا أن إسرائيل

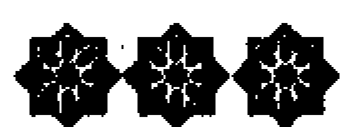
والهيئات الاستعمارية والتبشيرية تؤجج النار، وتبعث بالأسلحة والمساعدات لأجوكو، وتساعده إعلاميًا في الصحافة العالمية والإذاعات الكبرى، وتروج لجمهورية جديدة ... جمهورية «بيافرا» وهكذا أغرقت بلادنا في الحرب الأهلية الدامية ... الحرب التي خطط لها الاستعماريون والاحتكاريون والحاقدون على الإسلام والمسلمين، وروج لها الذين رقصوا بالأمس لمصرع أحمدو بيللو ونائبه أبو بكرة تفاوة ...

وتدفق عمالقة الشمال النيجيري صوب غابات الإيبو، وأوكار العمالة والخيانة، ليعيدوا للبلاد وحدتها وهدوءها، وليحفظوا للأمة خيراتها وحريتها ....

ورجعنا إلى «سوكوتو» أنا وعبد الرحيم والخادم العجوز ...

ولم يكن هناك مفر من أن ألتحق بالقوات المحاربة إيمانًا بوحدة الأمة وحريتها وتخليصها من براثن المتآمرين والمتعصبين والاحتكاريين ...

وانضم أيضًا عبد الرحيم ...



الفصل ٢١

الطريق من «كانو» و «سوكوتو» إلى مدينة «اينوغو» عاصمة «بيافرا»

الانفصالية، طريق وعر طويل شاق، على جانبيه أريقت دماء كثيرة، وسقط عدد من الشهداء وأصبحت الغابات مسرحًا للانفجارات العنيفة، وطلقات الرصاص المستمرة، وكانت الطائرات تحلق في الأجواء حاملة الموت والدمار والدماء، وتنفث الدخان الأسود، وصمتت الأغنيات الشعبية الجميلة، أغنيات الحب والنماء والأمل والزهور والحصاد، ودقت في الأنحاء المارشات العسكرية المخيفة، وطبول الحرب يعلو عويلها المتحشرج المزعج، وعمالقة الشمال يتدفقون صوب الهدف...

كنت قلقًا طوال المعارك الدامية، والحرب يا أصدقائي كالعمياء البكماء، لا تميز بين صالح وطالح، ومجرم وبريء، ووثني ومؤمن كلهم بشر يتألمون ويخافون، ويحزنون ويتشاءمون، وعزائي الوحيد أن كل شيء بقضاء وقدر، وأنه لابد من بعض الألم كي ننعم بالراحة، والشقاء قد امتزج بالنعيم في دنيانا الفانية، ولا حيلة في الأمر ما دام هناك أناس يطمعون، ويستسلمون للإثم والجشع، وأناس يهمهم أن يوسد الحب، ويرتبط الإخوة في الوطن بكيان واحد، يحفظهم من الشرور، ويحميهم من العدو، ويمكن لهم من ثرواتهم وحريتهم... ذلك قضاء الله ولا راد لقضائه.

وهناك قرية على تبة علية، كان لرجال «أوجوكو» موقع حصين عليها، ولا يمكن أن أنسى الأيام المريرة التي عانينا فيها ونحن نحاول احتلال هذا الموقع، لأن مدافعهم كانت تتحكم في تحركاتنا، وكلما قمنا بهجوم، انهالت علينا نيرانهم القوية فخسرنا عددًا كبيرًا

من الشهداء ، وكانت لدى الجيش عندنا بعض الطائرات التي قرر قائد الكتيبة الاستعانة بها لذلك الموقع ، والمشكلة العويصة أن المدافع المضادة للطائرات كانت تشكل خطرًا آخر ، وعلمنا بطرقنا الخاصة أن بعض الخبراء الإسرائيليين ، والذين كانوا قبل ذلك ضباطًا في الجيش الأمريكي يوجهون العدو ، ويمدونه بالمشورة ، ويساعدونه في التخطيط والرمي ، كان لابد أن نحتل هذا الموقع الذي يتحكم في عدة طرق ، حتى لا يتعطل الزحف ، والحقيقة أن رجالنا كانوا يتقدمون دون خوف ، لكن العدو يدافع في استماتة بالغة ، وكنت أضرع إلى الله في صلواتي ودعواتي أن يجعل لنا السيطرة على هذا الموقع حتى لا نفقد مزيدًا من الضحايا ، إنني أتألم من فقدان أي إنسان في هذه الحرب الأهلية ، التي اندلعت بين الأخ وأخيه ، ولذا تمنيت من صميم قلبي أن يضع الله لهذه الحرب النهاية العادلة في أقرب وقت ، يا إلهي ... إن المزروعات قد تلفت تمامًا ، والحيوانات هي الأخرى قد أصيبت بالفزع ، فهي تجرى في هلع ، وتعوي عواء المضطرب الخائف ، اضطرب الأمن وشقت الحياة على كل الكائنات ... واستطعنا بالحصار الشديد ، والضرب المستمر أن نعزل المنطقة ، ولا نسمح لأية نجدات بأن تنفذ إليها من أية ثغرة ، وأخيرًا بعد عناء طويل ، استطعنا أن نستولي على الموقع ، كنا نتقدم ، ولا نقف أو نتراجع برغم كثرة الذين يسقطون ، وعندما تم لنا النصر ، وقف قائدنا وقال وعيناه تبرقان في تشف : «سوف أجعل من هؤلاء الخونة عبرة ... سأقيم مذبحة أكبر من مذبحة «أونيتشا» التي أقاموها لإخوتنا من «الهوسا» ...»

وجريت صوب القائد وهتفت : «أيها الأخ الأكبر ... إنهم أسرى»

- «هم عصابة مجرمين ...»

قلت وعيناى مخضلتان بالدموع : «القتل لا يصلح شيئًا ، ودماء الحقد صعب أن يجف ...»

نظر إلي في غيظ وسخرية وقال : «أنت لا تعرف الحرب ... لو

لقناهم درسًا ، فسوف تستسلم كل المواقع التالية دون مقاومة... الرعب يفتح الطريق أمامنا ...»

صرخت في حدة : «بل الحب والصفح هما اللذان يفتحان الطريق ...»

صاح القائد : «خذوه بعيدًا ...»

وأمسك بي عدد من الإخوة ، وسحبوني إلى مكان آخر ، كنت أصيح وأتوسل إليه ألا يريق دمًا ، أو يقتل أسيرًا ، نحن نريدهم أحياء لنصنع من حقدهم صورة جديدة للتفاهم والإخاء ، نريد أن نسلمهم كلمات الله لعلهم يؤمنون ، وعندما يستقر الإيمان في قلب مجموعة من البشر ، فسيتحولون إلى إخوة حقيقيين لنا ، وعندما أطبقنا عليهم ، كان المحاربون يرفعون أيديهم في استسلام تام ، عيونهم تعبر عن التعاسة ، وأجسادهم النحيلة يرتسم عليها الشقاء والجوع والسهر المضني ، وأمسك قائدنا بمدفعه وصاح : «أيها الحمقى ... إن قادتكم»

وجاءنا صوت رجل جريح : «لقد هربوا يا سيدي ...»

كز على أسنانه غضبًا ، ووقف صامتًا لحظات ، فتقدمت إليه وأمسكت بيده في هدوء وقلت : «دعنا نجرب ... هؤلاء الرجال لو صفحنا عنهم ، فسيكونون عونًا لنا لا علينا ... تذكر إنهم إخوة ... وأننا نسير في ضوء شريعة الله ...»

تفصد جبينه عرقًا ، ونظر إلي طويلاً ، ثم مضى إلى سيارته ...

الحمد لله ... وجلست وسط الجنود المنهزمين يومين أشرح لهم القضية ، وأوضح لهم الأمر ، وأفسر لهم معنى الإيمان ، وصاح أحدهم : «لقد خدعونا ...»

الحقيقة أن الصفح عنهم ، بعد هذا الصراع الدامي ، كان أفعل من أي وعظ ، وأبلغ من أي كلام ، وفي خلال يومين ، كانوا قد استجابوا لكلماتي وآمن عدد غير قليل منهم ، وأجمعوا أمرهم على أن ينضموا إلى صفوفنا من أجل وحدة نيجيريا الأم ، وكان قائدنا سعيدًا جدًا لهذا

التوفيق العظيم، وكان لتوجيهاتهم وصراحتهم أثر كبير في انتصاراتنا فيما بعد، بل إن القائد أنعم على بنيشان وترقية عسكرية تقديرًا لما أسديته لقواتنا المحاربة من خدمات جليلة كما جاء في كلمته – أثناء الاحتفال الصغير المتواضع الذي أقامه من أجل شخصي الضعيف ... أما سكان القرية المجاورة للموقع فقد ظلوا قابعين في أكواخهم وبيوتهم لا يغادرونها، وعلمنا أنهم لم يكونوا يقدمون للمحاربين ما يحتاجون إليه من طعام ولا شراب إلا عنوة، بل إن الأعداء قتلوا عددًا من أهل القرية، وخاصة المسلمين منهم الذين رفضوا التعاون معهم، ولم يكن ذنب المحاربين بل ذنب قادتهم الذين يتلقون توجيهًا من الخبراء اليهود والضباط التبشيريين وعملاء الاستعمار ...

ودخلنا القرية وأمامنا مكبرات الصوت تعلن لهم العفو، وتعدهم بحسن المعاملة، وتدعوهم للخروج إلى العمل، ومزاولة حياتهم دون خوف، وخرجت القرية عن بكرة أبيها ترحب بنا، وانعقدت حلقات الرقص الوطني، واختلطت الأغنيات الشعبية، وأخذ عدد كبير من الشباب يهتف بسقوط «أوجوكو» والخونة، ولقد حاول بعض الجهلة من جنودنا أن يمازحوا الشابات، فجن جنوني، وأسرعت بإخبار القائد، الذي أصدر أوامره بالكف عن هذا العبث، وقلت فيما قلت لقائدنا: «سيدي القائد، إننا ننتصر عليهم بطاعتنا لله، ومعصيتهم له ... فلو تساوينا في المعصية معهم، لانتصروا علينا ...»

فابتسم القائد، ثم ضحك، وأخذ جسده يترنح من شدة الضحك وأخذ يقول: «الحرب تسقط بعض القيم يا عثمان ...»

– «لكن المسلم أيها الأخ الأكبر لا يفارق قيمه سواء في السلم أو الحرب ...»

– «صدقت ... أنت رجل صالح ...»

وصمت برهة ثم قال: «أعرف أن الحرب قد تغير كثيرًا من ظروف الفرد وسلوكه وبعض الجنود قد يصابون بالجنون ... ليس

سهلًا أن يسقط القتلى، وتسيل الدماء، وتنطفئ شمعة الحياة ... ومع ذلك فقد أصدرت أوامري ...»

وأبديت له تقديري وشكري، وقلت له وأنا أتطلع إلى الشمس الحارقة التي تسكب النور الساخن على القمم والغابات: «ما جئنا لنكسب معركة حربية، بل لندعم أواصر الحب، ونجمع الإخوة في الشرق على قلب رجل واحد ... جئنا لنكسب قلب الإنسان، قبل أن نكسب الأرض والمواقع ......»

ومضينا في طريق المعارك المضنية العنيفة، كانت الحرب هي جل حياتنا، نمسي ونصبح، ونحن نعد لمعركة، أو نمتلك منطقة من جيوب المقاومة، أو دفن موتى، أو نضمد جرحى، وكنت أتألم، أن الإنسان الذي يموت يجب أن تهتز له قلوبنا، موت إنسان شيء كبير للغاية، فبموته تموت أمنياته، وأحلامه وغده، ولا يعود مرة ثانية إلى أهله ومحبيه، أله أبناء ينتظرون؟؟ أله أم وأب يقفون كل صباح وكل لحظة غروب ينظرون إلى الأفق البعيد لعله يأتي إليهم؟؟ لكن لا مفر من الموت، والحرب فرضًا، وليس أمامنا إلا الدفاع عن أنفسنا ووحدتنا وأمن شعبنا ...

وأنا أكره الكذب أشد الكره، كثيرًا ما كنت أفكر في «جاماكا» أعني «سعيدة»، كنت أخاف أن تصيبها رصاصة طائشة، وما أكثر الرصاصات الطائشة في الحروب ... كان لها في قلبي منزلة خاصة، وكانت بريئة مضطهدة، ولذا تمنيت أن تعيش وأن تنعم بباقي حياتها ... إنها بالنسبة لي تعني الأمل في المستقبل الطيب، تعني إمكانية التقاء بين الهوسا والإيبو واليوروبا وغيرهم من أبناء نيجيريا الأم ... كانت رمزًا حيًا نابضًا ولم تكن مجرد حبيبة ... ويوم أن وقفنا على مشارف المنطقة التي تعيش فيها، كان قلبي يدق ... متى تبدأ المعركة؟؟ وأين سنصب نيراننا، وذهبت إلى القائد وقلت: «لا يصح أن نطلق رصاصة واحدة قبل أن نتأكد من أن العدو هنا سيقاوم ...»

وابتسم القائد في هدوء وقال: «أخبرني عبد الرحيم عن كل شيء ...»

وأخذ يقهقه ثم استطرد: «لن ندع هذه الأمور الشخصية تتحكم في مصير المعركة ... وفي مصير الرجال الذين يسيرون معنا في حقول الموت ... هل فهمت؟؟

قلت وأنا أخفض رأسي خجلًا: هؤلاء الناس أنقذوا حياتنا ... وفيهم من يحبنا ويؤمن بالله ...»

رد في جفاف: «سنرى ...»

– «إذن فلتتركني أذهب لمفاوضتهم ...»

– «فليأتوا هم ...»

– «لسنا يا سيدي القائد في مجال الكبرياء ...»

– «ليست كبرياء، ولكنها الأصول العسكرية ... لو كانت زوجتي وأولادي يعيشون في هذه القرية، ورأيت من المصلحة أن أدمر القرية، لدمرتها في الحال ...»

أقشعر بدني، تصورت البيوت المهدمة والصراخ والبكاء والآدميين الذين يسحقون تحت الأنقاض في نبرات واهنة: «ديننا يوصينا بالرحمة»

– «لا تخلط بين الرحمة والتخاذل ...»

ونظر القائد إلى بعيد وأنا أفكر في هذا الموقف الصعب، وأفقت من شرودي على صوت قائدنا يقول: «ها قد أتوا ...»

يا إلهي ماذا أرى؟؟ مجموعة من سكان القرية، وعلى رأسهم زعيمها وإلى جواره «جاماكا» يحملون الرايات البيضاء وباقات الزهور، وأعطيت التعليمات للجنود بالاستعداد الكامل، وإعداد العدة لأي طارئ، ودخل الزعيم ومن معه بين صفين من الجنود، وما أن رأتني «جاماكا» حتى اتسعت حدقتاها دهشة، وامتلأت عيناها بالدموع، ثم ألقت بنفسها فجأة بين ذراعي ... ولم أكن أدري ماذا أفعل ...

قال زعيم البلدة: «جئنا نرحب بمقدم الأشقاء القادمين من الشمال... ونحن أصدقاء من قديم، وعثمان أمينو... يعرفنا جيدًا...»

سامحني الله، فقد كنت أشعر بنشوة الفخر والنصر، ليس هناك محب يحلم بأن تراه حبيبته على أروع من هذه الصورة الفريدة... لكني استغفرت الله من هذه الأنانية وهذا الغرور

وقال الزعيم: «لن تجدوا في أرضنا غير المحبة والسلام... ويسعدنا أن نقدم لكم كل المعونات الممكنة باسم الوطن الأم... ويسعدنا أن يشترك معنا جنودكم في بناء مسجد صغير...»

ورد القائد في سعادة: «نحن نبني ولا نهدم، ونحارب من أجل الإبقاء على المعاني العريقة بين أبناء شعبنا، والتي أراد العدو الأكبر أن ينسفها نسفًا...»

ودخلنا القرية مطمئنين هانئين، وبقينا فيها فترة للاستجمام وجمع المعلومات، وإعداد العدة لمواصلة الزحف نحو «اينوغو» عاصمة «بيافرا» المزعومة.

ها نحن معًا يا «سعيدة»... يا حبيبة القلب، وشريكة أيام النضال، نلتقي معًا من جديد، انزاحت القيود، وتراخت قبضة الطغاة يا حبيبتي، وها هم أهلك وسكان بلدتك يحيطوننا بالأهازيج الحلوة الندية، ويبعثرون في طريقنا الورود والزهور، وها هو أبوك يبتسم ابتسامته الحلوة النابعة من القلب، وها هن نسوة القرية يصنعن لك من الأوراق الخضراء وأفرع الورود تاجًا يليق بمقامك، ويجعلون منك فتاتهم الأولى النبيلة، التي حذرتهم من مغبة المصير، ووجهتهم إلى الطريق السليم، وشرحت لهم أسباب الفتنة... ها نحن نلتقي يا حبيبتي، ووراءنا طريق طويل من الأشواك والدماء، وأمامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية... طريق لا شك تحفه المكاره الحربية، والصراعات الفكرية، والأفاعي الماكرة... لكننا بعون الله سننتصر... قلب المؤمن يا حبيبتي تعنو له الجبال، وتطأطئ له القمم،

وينطلق في ظل الله لا يخاف وعدًا أو وعيد ...

أي سعيدة ... لابد أن أسافر ... وأكمل الرحلة المقدسة حتى «اينوغو» ... كي نطهر الأرض من الرجس ... وسأعود إليك يا حبيبتي مع الفجر الندى الساحر، المرطب بالحب والأحلام والذكريات الشجية ...

وذهلت عندما سمعت سعيدة تقول: «لن تسافر وحدك»

– «كيف؟؟»

– «سآتي معك، أضمد الجرحى، وأشارك معكم في معركة الوحدة والتوحيد وستأتي معي فتيات كثيرات ...

لن نكون عبئًا عليكم ... لقد نظمت كل شيء ...»

قلت في حيرة: «لابد من موافقة القائد ...»

ضحكت ضحكتها الحلو الآسرة وقالت: «لقد وافق، واشترط علي شرطًا»

– «ما هو؟؟»

قالت وهي تحرك سبابتها في تحذير لطيف محبب:

– «الزواج بعد انتهاء الحرب ...»

قلت وقلبي يدق: «هذا إن لم تطحننا الحرب بأحجارها التي لا ترحم ...»

ابتسمت في انتعاش وقالت: «الله معنا ...»

❁❁❁

الفصل ٢٢

– «اينوغو» يا ابنة العم الجاحدة ... لا تضحكوا مني ... لأن العاصمة «اينوغو»
التي تمردت وأعلنت الانفصال، هي في نظري كابنة العم التي خانت تقاليد الأسرة الواحدة، وسقطت في حبال الخديعة، وباعت نفسها للشيطان ... ها هي القوات الاتحادية النيجيرية تحاصرك يا «اينوغو»، وعمالقة الشمال – أبناء العم – يدقون أبوابك، من كل صوب ... الشيطان يضحك منك، ويسخر من سذاجتك يا من استجبت لتحريضه، وأرقت الدماء، وتسببت في آلاف الضحايا ... افتحي ذراعيك أيتها الحمقاء المتمردة ... فإن أبناء العم، لن يسفحوا دمك باسم الشرف والفضيلة، افتحي ذراعيك وعودي إلى السواعد الفتية، والأحضان السمراء الدافئة، التي تنبض بالحب والأمل، وتؤمن بالصفح والغفران وجمع الشمل .... لا تتلفتي وراءك يا «اينوغو» فقد هرب الشيطان وتركك وحدك تعانين مرارة الندم، وقسوة تأنيب الضمير ... عودي يا ابنة العم الشاردة ... فقد بطل السحر، وسقط كل ادعاء وزيف ... كوني شجاعة واعترفي بالخطأ، كي تبدئي حياة جديدة نظيفة، فقد هرب «أوجوكو» الذي أثار النعرات القبلية، وخدعك بحلو الكلام، وضحك عليك بالشعارات الكاذبة ... ماتت الأوهام، وها أنت تواجهين الحقيقة الأليمة ... الإيبو واليوروبا والهوسا وغيرهم، كلهم أبناء أم واحدة هي نيجيريا، صهرتهم الآلام والنضال والذكريات والانتصارات في بوتقة واحدة ... ولم تعد بلادنا ساحلًا للعبيد ... هي الآن أرض الأحرار ... لا تفزعي يا «اينوعو» فإن ما حدث كان مجرد نوبة من نوبات الصرع أو الهستيريا، والمرضى قد يفعلون أشياء

بدون إرادتهم، وما كان الحقد طريقًا للشفاء، ولا كان الانفصال أو الانعزال وسيلة للقوة والمنعة».

بهذه الكلمات كنت أناجي نفسي، وأحدث كل من ألقي في شوارع «اينوغو» عاصمة جمهورية «بيافرا» المزعومة، كنت أهمس في حان والدموع تغرق خدي وأنا أرى جموع المحاربين التعساء يلقون السلاح في استسلام، وقد هدهم الصراع، وأرهقهم طول السهر والعناء، كانت نظراتهم مشحونة بالألم، يبللها الندم والأسف، وكان رجالنا المنتصرون يمضون في هدوء ويسيطرون على المواقع دون تشفي، وعاد الأمن والهدوء بعد صراع طويل دام... والغريب أنني كنت أسمع وكالات الأنباء العالمية في الإذاعات، وأقرأ تعليقاتها في الصحف، وهي تتكلم وتكتب عن الضحايا واللاجئين والجائعين والمضطهدين في الأقليم الشرقي في نيجيريا... هؤلاء الحمقى يكذبون... والأغرب من ذلك أنه قامت دعوة «إنسانية» - هكذا زعموا - لجمع التبرعات، وإرسال المعونات الغذائية والدوائية لتعساء الإيبو... يا إلهي... إنهم يكذبون... ولكني سعدت إذ سمعت «يعقوب جوون» قائد نيجيريا الاتحادية يعلن على الملأ أنه يرفض تلك المعونات، لأن نيجيريا المتحدة ليست في حاجة إليها... وأن الذين يتحدثون عن لمآسي الموهومة ما هم إلا حفنة من الاستعماريين والإسرائيليين ومؤسسات التبشير المتعصبة وأن كل ما يروجون لا أساس له من الصحة...

آه... الذين رقصوا بالأمس ابتهاجًا بموت أحمد بيللو، وطربوا لدماء الشرفاء أثناء تمرد «شوكوما» وحكم «ايرونسي» وحمامات الدم التي أقامها «أوجوكو»... الذين رقصوا بالأمس أراهم يبكون

غيظًا أم ندمًا أم خوفًا من هول المصير؟؟

لقد عاد الصفاء والهدوء والسلام برغم كل ما حدث، وخرج أبناء نيجيريا في الشمال والجنوب ... في الشرق والغرب يغنون ويرقصون ويمرحون ... ينشدون للسلام والوحدة والحرية أناشيد شجية تأخذ بمجامع القلوب، وتبهر الآذان والعيون!!

– «أين أنت يا عبد الرحيم؟؟»

وأخذت أتجول في أنحاء «اينوغو» ... الناس يأكلون في سعادة، وكأنما انجاب عنهم هم ثقيل، وانزاحت عن كواهلهم أحزان طال بقاؤها، وأجراس الكنائس تدق، والمآذن ينطلق منها الصوت الحبيب «الله أكبر ... الله أكبر ...» ووجدت عبد الرحيم خارجًا من أحد المساجد الصغيرة، وغمغم: «هل انتهينا؟؟»

قلت وأنا أنظر صوب السماء الصافية التي يغمرها الضياء بعد الظهر: «تلك هي البداية»

– «إذا كانت هذه هي البداية يا عثمان أمينو، فكيف تكون المسيرة الحقيقية إذن؟؟»

– «ما أكثر ما يحتشد في الطريق من عقبات ... لك أن تسألني ما هو النصر الذي أريد؟؟

أجل ... أن تضئ شعلة الإيمان قلب الأم الكبير ... أن تهتف نيجيريا لله وحده ... هذا هو السلام الحقيقي ... والنصر الكامل الذي علمنيه محمد (ص) ... الإيمان. الحرية والخلاص والسعادة ...

حيث لا يستعبد بشر بشرًا، وحيث تتحطم الأصنام الآدمية وحيث يصبح الناس إخوة بمعنى الكلمة»

ومضينا في شتى الطرقات نبحث عن «سعيدة» ...

إنها غارقة وسط الجرحى والدماء والآهات الملتاعة ... – هتفت : « سعيدة »

نظرت إلي في عجل وقالت : « لا وقت لدي الآن ...»

– « لكني أريدك لأمر هام يا سعيدة »

– « حياة هؤلاء أهم من أي شيء آخر ...»

شعرت بشيء من الخجل ، لكنها عاجلتني قائلة : « أحمل هذا الرجل معي إلى ذلك المكان ... إنه يحتاج إلى عملية بتر الآن ...»

كانت تتكلم وتشير إلى غرفة تبعد عنا حوالي عشرين مترًا ، ووجدتني أنهمك معها في العمل لبضع ساعات دون أن اشعر بمرور الوقت ... المأساة هنا ... النظر – مجرد النظر – إلى وجوه هؤلاء التعساء يجسم مأساة الحرب ، ويجعل منها شيئًا بشعًا مروعًا ، والاستغاثات الضارعة تزرع في قلبي حزنًا أبديًا ، والأيدي الشاحبة النحيلة الراعشة ، وهي تمتد إلي في توسل تفجر من عيني الدموع ، ذلك مشهد لن ينمحي من ذاكرتي طول حياتي ...

وقبيل منتصف الليل ، نظرت إلى سعيدة بعينين يخالطهما النعاس ، وتثاؤباتها تتوالى ، وهمست في دهشة : « ماذا تريد؟؟ »

– « ألا تعرفين؟؟ »

– « كل ما أعرفه أن لدي عملًا هنا يستغرق حوالي الشهر ...»

– « وبعدها؟؟ »

نظرت إلى وجهه يشرق بالسعادة : « وبعدها يا عثمان انطلق في أي اتجاه ... وستجدني وراءك ... حتى آخر الدنيا ...»

وأغمضت عينيها وهي تتكئ على منضدة خشبية معفرة ، وقالت وهي في شبه حلم : « سيكون كل شيء على ما يرام ... سيغني لنا عبد

الرحيم أغنيته الحلوة ... وسنقيم أفراحًا تستمر أسبوعًا في قريتنا الحبيبة ... لقد وعدني الزعيم، كما وعدني أبي بأنهما سيباركان زواجنا ... عثمان ... أيها الحبيب الغالي ...

– سيكون أبناؤنا أسعد حالًا منا ... وسندعو إلى الله في كل بقعة تطؤها أقدامنا ...

«سعيدة وعثمان» رمز نيجيريا الواحدة ... وسيدعو لنا الشيخ عبد الله بالبركة والسعادة ... هذا رجل صالح ...»

وصمتت عن الكلام، وابنعثت أنفاسها هادئة رتيبة ... فتناولت ملاءة بيضاء نظيفة، وأسبلتها عليها ... وجلست إلى جوارها وهي نائمة أنظر إلى وجهها الملائكي ... وبقيت متيقظًا حتى الصباح ...

نحن الدعاة إلى الله ...

طريقنا الحب الطاهر بكل ألوانه الباهرة ...

غذاؤنا الأمل ...

وطريقنا يمتد إلى بعيد ... لا يقطعه الموت، أو تطمسه العواصف ...

فالركب السائر إلى الله في صدق لا يضل الطريق ...

❁❁❁